هانس فالادا

تقرير موضوعي عن سعادة مدمن المورفين

قصة طويلة

«يستحق «فالادا»
ثناءً عاليًا لكتابته
عن الحياة بهذه الواقعية،
وهذا الصدق، وهذا القرب»
«هرمان هسه»

مكتبة
سر من قرأ

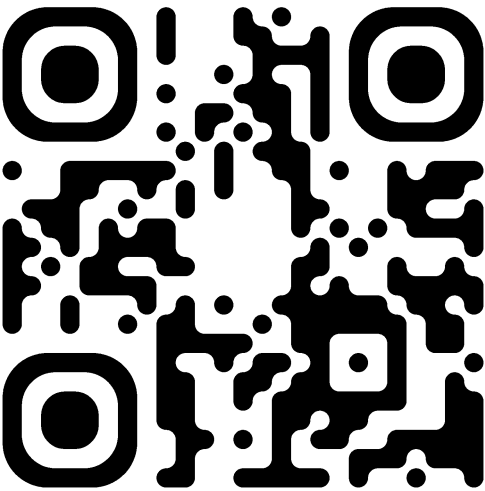

سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

تقرير موضوعي

عن سعادة مدمن المورفين

الكرمة

لمزيد من المعلومات عن الكرمة: facebook.com/alkarmabooks

العنوان الأصلي:

Sachlicher Bericht über das Glück, ein Morphinist zu sein

Drei Jahre kein Mensch

هانس فالادا، ١٩٩٧

مكتبة

t.me/soramnqraa

فالادا، هانس، ١٨٩٣-١٩٤٧.

تقرير موضوعي عن سعادة مدمن المورفين

ثلاث سنوات لم أكن إنسانًا : قصتان / هانس فالادا؛ ترجمهما عن الألمانية

سمير جريس - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠١٨.

١٢٠ ص؛ ٢٠ سم.

١- القصص الألمانية.

أ- جريس، سمير (مترجم).

ب- العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٥١١٤ / ٢٠١٨

٩٧٨٩٧٧٤٦٨١٠٣١

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

صورة الغلاف:

بورتريه لـ«هانس فالادا» بريشة الرسام «إريش أوزن» (توقيعه الفني «إ. أو. بلاون»)، ١٩٤٣

هانس فالادا

مكتبة
t.me/soramnqraa

تقرير موضوعي
عن سعادة مدمن المورفين

قصة طويلة

ترجمها عن الألمانية
سمير جريس

الكرمة

المحتويات

تقرير موضوعي عن سعادة مدمن المورفين
٧

ثلاث سنوات لم أكن إنسانًا
٥١

تقرير موضوعي
عن سعادة مدمن المورفين

١ مكتبة
t.me/soramnqraa

حدث ذلك في تلك الفترة البرلينية العصيبة التي كاد المورفين فيها أن يقضي عليَّ تمامًا.

سار كل شيء سيرًا حسنًا طيلة أسابيع، إذ استطعت أن أخزن كمية كبيرة من «البنزين»، مثلما كنا نطلق على ذلك السم، وهكذا كنت متحررًا من أكبر هَمٍّ يسيطر على مدمن المورفين، هَمِّ الحصول على البضاعة. لكن كلما اقترب المخزون من نهايته، زاد استهلاكي له، كنت أريد أن أشعر مرة أخرى بالشبع التام، ثم ـ التوقف نهائيًّا عن ذلك. فلا بد أن أبدأ يومًا حياة أخرى. يتم التوقف الفجائي إذا كان لدى المرء القوة اللازمة. الشفاء يحدث أحيانًا على هذا النحو.

ولكن عندما استيقظت في ذلك الصباح وواجهت الفراغ، أدركتُ أن عليَّ الحصول على مورفين، بأي ثمن. قلق

مؤلم سيطر على جسدي كله، كانت يداي ترتعشان، وعطش فظيع كان يعذبني، لم أشعر بالعطش في حلقي فحسب، بل في كل خلية من خلايا جسمي.

أمسكت بالسماعة واتصلت بـ«فولف». لم أمهله وقتًا، وبصوت محتضر همست له:

ـ هل لديك بنزين؟ تعالَ فورًا! إني أموت!

واستلقيت مرة أخرى على الوسائد وأنا أتنفس الصعداء. هدَّأ جسدي المعذبَ الشعورُ العميق الاحتفالي بالخلاص، الشعورُ بالنشوة التي تسبق الاستمتاع: سيأتي «فولف» بالسيارة، وسأحقن نفسي ـ شعرت بالإبرة تنغرز، الحياة كلها جميلة الآن.

دق جرس التلفون الصاخب، كان «فولف» على الخط:

ـ لماذا أغلقت بسرعة؟ لا أستطيع أن أحضر لك بنزينًا، لم يعد لديَّ أي شيء. لا بد أن أذهب اليوم للصيد.

ـ حقنة، حقنة واحدة، وإلا سأموت يا «فولف».

ـ ولكن ليس عندي.

ـ عندك. أنا متأكد أنه عندك.

ـ كلمة شرف.

ـ أعرف من صوتك أنك أخذت لتوِّك حقنة. أنت شبعان عن آخرك.

ـ آخر مرة الساعة الواحدة صباح اليوم.

ـ وأنا لم آخذ شيئًا منذ الحادية عشرة. «فولف»، تعالَ بسرعة.

ـ لا فائدة من ذلك. تعالَ أنت معي. أعرف صيدلية مضمونة. خذ سيارة، وسنتقابل في التاسعة في «ألكسندر بلاتس».

ـ هذا ليس مقلبًا منك؟ احلف!

ـ بأمانة يا «هانس». التاسعة في «ألكس».

أنهض ببطء. وأجد صعوبة بالغة في ارتداء ملابسي، أشعر بالوهن في أطرافي التي ترتعش ارتعاشًا دائمًا. تبخر شعوري بالتحسن، لا يصدقني جسدي أنني سأحصل له على مورفين.

ألقي نظرة على التقويم وأكتشف بالصدفة أن اليوم يوم نحس. أجلس عندئذ على الفوتيه، وأنخرط في البكاء. لو أموت! ولكنني أعلم منذ وقت طويل أن جبني يمنعني من الموت، عليَّ إذن أن أتحمل، لا يبقى أمامي شيء آخر غير أن أستلقي على الأرض باكيًا أمام القدر، وأتضرع له بألا يصيبني بضرر.

تأتي صاحبة البيت وتقول لي شيئًا، بالتأكيد شيئًا مُعزيًا، غير أنني لا أقطع نحيبي، بل أشير لها بيدي كي تنصرف. لكنها تواصل الحديث، وشيئًا فشيئًا أفهم أنها تقول إنني في الليلة السابقة قد تسببت ـ مرة أخرى ـ في إحداث ثقوب في سريري بسيجارتي المشتعلة.

أدس في يدها بعض المال، ولأنها تنصرف في هدوء، فلا بد أنه كان كافيًا.

أما أنا فلم أنهض بعد، مع أن الساعة ستشير قريبًا إلى التاسعة. أستغرق في التفكير: الكافيين سم، هكذا أقول لنفسي، إنه يسرع نبضات القلب. هناك حالات كثيرة لأناس ماتوا بسبب ذلك، مئات، آلاف من الحالات. الكافيين سم وخيم العواقب، تقريبًا مثل المورفين. كيف لم أفكر في ذلك من قبل! الكافيين سيساعدني.

أنهار على الكرسي، أُفرغ في جوفي فنجانًا، ثم فنجانًا ثانيًا. أجلس لوهلة، أحدق أمامي، وأنتظر. أريد أن أنكر الأمر، مع أنني أعرف أنني أكذب على نفسي، مرة أخرى أكذب عمدًا على نفسي. أعرف من البداية أن معدتي سترفض الاحتفاظ بهذه القهوة الخفيفة. أشعر بجسدي كله يرتعش، ويغطيه العرق البارد، لا بد أن أنهض، شيء يشبه التشنج يجعل جسدي يهتز، ثم أفرغ ما في جوفي

على دفعات. «هذا هو الموت»، أقولها لنفسي هامسًا وأحملق بنظرة ناعسة أمامي.

بعد فترة كنت قد ارتحت قليلًا، فاستطعت النهوض والسير إلى دورة المياه لأتم قضاء حاجتي، ثم أخرج إلى الشارع وأجد سيارة أجرة. «فولف» أيضًا لا يجيء أبدًا في الموعد.

٢

إنه ينتظر فعلًا. ألاحظ على الفور أنه هو أيضًا جائع: الحدقة على اتساعها، والخد متهدل، والأنف بارز بحدة.

يتضح عندئذ أنه لم يزوِّر بعدُ الروشتات الطبية التي يحتاج إليها في الصيدلية؛ لم ينعم بالهدوء في البيت لكي يبحث عنها، مع أنه لم يكن يفعل شيئًا سوى تضييع الوقت، مثلي تمامًا. لكن في يده حقيبة، ويستطيع بالتالي أن يدعي في الصيدلية أنه مدمن مورفين في طريقه إلى المصحة. لم يعد «فولف» ساذجًا، ولذلك لا يزوِّر روشتات برلينية حيث يمكن الاتصال التلفوني بالعيادة دائمًا.

نذهب معًا إلى مكتب بريد ونحرر دستة من الروشتات. نقيِّم خطنا، ثم نقوم بإعدام ثلاث روشتات لم يكن الخط فيها يشبه شخبطة الأطباء.

بعد ذلك نتفق على الحي الذي سنصطاد فيه. تقع صيدلية «فولف» المضمونة في الجزء الشرقي من المدينة، لذلك نريد أن نصطاد اليوم في الشرق، مع أن الجزء الغربي يقدم مزايا أكثر بالطبع، فالسكان هناك أكثر ثراء، ويستطيعون بالطبع أن يُقبِلوا على رذيلة مُكلِّفة مثل إدمان المورفين، وهو ما لا يقدر عليه العمال في الشرق، ولهذا فإن الصيدليات في الغرب معتادة على هذا النوع من الزبائن.

نركب سيارة أجرة. قبل عدة خطوات من أقرب صيدلية يوقف «فولف» العربة، ثم يسير مريضًا وأعرج. أتكئ إلى الوراء، لقد كتب «فولف» على الروشتة محلولًا، وسينبغي عليه الانتظار ربع ساعة.

بعد ربع ساعة سيكون عندي بنزين! لا أستطيع الانتظار أكثر من ذلك، جسدي يزداد ضعفًا، ومعدتي تؤلمني بشدة، إنها تريد المورفين وتتحرق شوقًا إليه. أستند على الوسائد، وأغلق عينيَّ متخيلًا جمال لحظة غرز الإبرة. دقائق فحسب، لحظات قصيرة جدًّا جدًّا، فراغ تام من الزمن، ثم ينساب في أعضائي هدوء احتفالي عميق، وفجأة ستصبح الحياة جميلة، وعندئذ سأستطيع أن أحلم بقَصري وحريمي. سأنتقي أجملهن، كل ما عليَّ أن أفعله هو أن أبتسم... فكل رغبة سيلبيها لي

المورفين، ما عليَّ سوى أن أغلق عينيَّ، والعالم كله سيكون ملكي أنا.

ألم يرجع «فولف» بعد؟ ما أطول الوقت الذي يحتاجون إليه لإعداد قليل من البضاعة! ولكنني لا أريد الشكوى، عدم مجيئه علامة جيدة معناها أنهم يعدون الدواء. لا يعود سريعًا إلا إذا رفضوا الروشتة. بعد قليل سيكون لديَّ مورفين. وهكذا أضع الحقنة على فرش السيارة، حتى أكون مستعدًّا فور وصوله.

ها هو «فولف». بمجرد رؤيته أعرف أنه لم يحصل على شيء. يقول للسائق العنوان التالي، ثم يجلس بجانبي ويغلق عينيه، وألاحظ أنه يلهث، ويمسح بيده العرق من جبينه.

ـ هؤلاء ليسوا بشرًا، إنهم حيوانات، جيفة! يتركون المرء يعاني هكذا. كان لا بد أن أستجديهم حتى لا يتصلوا بالشرطة.

ـ كنت أظن أنها صيدلية مضمونة؟

ـ المدير العجوز لم يكن موجودًا. كان هناك شاب، والشبان لديهم حدة كشفرة الموسى.

ـ لن أستطيع أن أتحمل طويلًا. أليس من الأفضل أن نذهب إلى مصحة يا «فولف»؟

ـ أتعتقد أنهم سيعطونك شيئًا هناك؟ سيأخذونك إلى غرفة الخطرين المبطنة بالكاوتشوك، وهناك يمكنك أن تتوسل إليهم وتصرخ كما يحلو لك. «بوبي» شنق نفسه مستخدمًا قدم السرير ثماني مرات في ليلة واحدة، وفي النهاية تركه الحراس معلقًا حتى كاد يلفظ النفس الأخير، كانوا يريدون إطالة الأمر إلى أن يستجمع قواه ويحاول شنق نفسه مرة أخرى. لكنهم لم يعطوه شيئًا.

تتوقف السيارة. يحاول «فولف» ثانية. في تلك الأثناء أقرر أن أقلع عن تعاطي المورفين، الآن ـ وقد أصبحت معتمدًا على «فولف» وعلى الصيدلية ـ لن أستطيع أبدًا الحصول على ثمانين حقنة، جرعتي اليومية. سآخذ في كل يوم جرعة أقل، هذا أمر ممكن. ولكن الآن لا بد أن آخذ، مرة واحدة، حقنتين أو ثلاثًا، حتى أشعر بالشبع التام.

يعود «فولف»، ويقول عنوانًا جديدًا، وتنطلق السيارة.

ـ لا شيء؟

ـ لا شيء!

أمر يدعو إلى اليأس. حوالينا يسير الناس وفي رؤوسهم آلاف الخطط، يترقبون في سعادة حدوث شيء، كما أن هناك زهورًا وبنات وكُتبًا ومسرحًا. كل هذا لا حياة فيه

بالنسبة إليَّ. أفكر في أن برلين بها مئات الصيدليات، وفي كل واحدة كثير من المورفين في إحدى الخزانات، ومع ذلك لا يعطونني شيئًا. عليَّ تحمل المعاناة، مع أن الأمر بسيط للغاية: ليس على الصيدلي سوى أن يدير المفتاح... وسيحصل على نقود، ما شاء من نقود، سأعطيه كل ما معي عن طيب خاطر.

يذهب «فولف» مجددًا.

فجأة أفكر في أن التوقف المستمر بالقرب من الصيدليات سيثير شكوك السائق. ربما يتصل بالشرطة؟ أبدأ حديثًا معه، وأحكي له حكاية طويلة مشوشة، أقول له إن كلًّا منا، صديقي وأنا، يعمل فنيَّ أسنان. لا نعمل أطباء أسنان. وفني الأسنان لا يحصل بسهولة على المواد المخدرة اللازمة لخلع الأسنان بدون ألم، بل يتحتم عليه أن يحصل على روشتة طبية من طبيب الأسنان، والروشتة غالية. ولهذا فإننا نذهب إلى كل صيدلية حتى...

لا يقول السائق سوى: «نعم»، «نعم»، ويومئ برأسه. لكنه يبتسم متحفظًا، ولذلك أظل أتشكك في أمره، سأدفع له أجره في أقرب فرصة لأتخلص منه، ولكن ليس على الفور، وإلا ذهب إلى أقرب شرطي ليبلغ عنا.

٣

يعود «فولف» قائلًا:

ـ لم نعد نحتاج إلى السيارة.

تزداد ضربات قلبي سرعة.

ـ هل حصلت على شيء؟

ـ لم نعد نحتاج إلى السيارة.

أدفع للسائق أجرته، وأنفحه بقشيشًا جنونيًّا. ثم أسأل «فولف»:

ـ هل لديك بضاعة؟

ـ انسَ! هذا يوم ملعون، لا يريد حيوان من هؤلاء قبول روشتات مني. علينا أن نفعل شيئًا آخر. سأواصل المحاولة في الصيدليات، وأنت عليك الذهاب إلى طبيب ومحاولة سرقة روشتات بيضاء.

ـ لا أستطيع ذلك. أي طبيب يرى حالتي اليوم، سيلاحظ على الفور أنني مدمن مورفين.

ـ دعه يلاحظ. المهم أن تسرق روشتات.

ـ وماذا نفعل بالروشتات؟ إنهم يتصلون دائمًا بالطبيب بمجرد أن يروا كلمة مورفين.

ـ سنسافر بعد ذلك بقطار الظهيرة إلى «لايبتسيج». ولكن خذ معك عددًا وفيرًا من الروشتات تكفينا لعدة أسابيع.

ـ طيب، سأحاول. وأين نتقابل؟

ـ في الواحدة بمطعم «بشور».

ـ وإذا حصلتَ على بضاعة قبل ذلك؟

ـ سأحاول عندئذ أن ألتقيك قبلها.

ـ طيب، سلام!

مكتبة
t.me/soramnqraa

ـ مع السلامة.

أشرع في السير. ليست هذه هي المرة الأولى التي أبدأ فيها جولة كهذه. في مثل هذه الأمور أنا أفضل من «فولف»، لأن منظري يوحي بالثقة أكثر، كما أن هندامي أفضل. لكنني اليوم في حالة بائسة تمامًا. لا أستطيع السير على نحو مستقيم، ومع أنني أمسح يديَّ على الدوام في منديل،

فإنهما تقطران عرقًا بعد لحظة واحدة، كما أنني لا أتوقف عن التثاؤب. لن أحصل على شيء، هذا ما أعرفه من الآن.

أمرُّ بحانة، فتخامرني فكرة أن شرب «الشنابس»، ربما يساعدني. ولكن بمجرد أن أحتسي الكأس الثانية يتحتم عليَّ أن أسرع إلى دورة المياه، إذ إن معدتي تمتنع عن الاحتفاظ بشيء داخلها، مثلما حدث مع القهوة. أجلس الآن على المرحاض القبيح وأعاود البكاء. وبعد أن أهدأ قليلًا، أغادر الحانة.

غرفة الانتظار لدى أول طبيب مكتظة عن آخرها بالجالسين. هذا طبيب تابع للتأمين الصحي، أي لا يصلح لي. هؤلاء الأطباء لا يحتاجون إلى الروشتات للمرضى خارج التأمين إلا نادرًا، ولذلك يحتفظون بها في الغالب في أحد أدراج المكتب. أقرر الانصراف، وهكذا أختفي من دون أن يلاحظ أحد ذلك.

أشعر على الدرج بالوهن البالغ، فأجلس على إحدى الدرجات. لم أعد أستطيع. أقرر أن أظل مستلقيًا هنا إلى أن يلتفت إلى وجودي أحد، عندئذ سيأخذني بالتأكيد إلى الطبيب الذي سيعطيني حقنة بدافع من الشفقة. بهذه الطريقة سأدخل إلى الطبيب على نحو أسرع مما لو جلست في غرفة الانتظار.

شخص ما يصعد الدرج، أنهض بسرعة، وأسير مارًّا به، خارجًا إلى الشارع. بعد عدة منازل أرى لافتة أخرى لطبيب. أصعد إلى العيادة. سيجيء الطبيب بعد ربع ساعة، جيد، سأنتظر. أجلس وحدي، وأقلب في المجلات.

وفجأة تخطر على بالي فكرة. أنهض وأرهف السمع واضعًا أذني على باب غرفة الكشف. لا حركة. ببطء بالغ أضغط على المقبض، فينفتح الباب قليلًا، أختلس نظرة، ولا أرى أحدًا. أفتح الباب سنتيمترًا بعد آخر، وأتسلل خطوة خطوة إلى غرفة الكشف. المكتب هناك، وهناك على الرف الخشبي... أمد يدي، لكنني أعتقد في تلك اللحظة أنني سمعت شيئًا، أقفز عائدًا إلى غرفة الانتظار، وأجلس على مقعد مبطن.

لا أسمع حركة أخرى، ولا يدخل أحد، أخطأت السمع. لقد ضاعت شجاعتي، لا أجرؤ الآن على المجازفة مرة أخرى. أظل في مكاني ساكنًا، من دون أن أجد القوة على النهوض. تمضي دقائق ودقائق، كان بإمكاني خلالها أن آخذ كل ما على المكتب وكل ما في خزانة الأدوية، لكنني لم أعد أجرؤ: اليوم يوم نحس.

احتفظ بهدوئك يا «هانس»، وعانِ في صمت.

٤

يفتح الطبيب الباب نصف فتحة، ويطلب مني الدخول. أنهض، وأدخل غرفة الكشف، أنحني أمامه وأُعرِّفه بنفسي. وفجأة نفضت عني كل التوتر والأمراض، لم أعد ذلك الشيء اللزج البائس الذي يوشك على الانهيار التام، أنا رجل لفَّ العالم ويتحدث بجمل قصيرة مُلزِمة.

أعرف أنني أترك انطباعًا ممتازًا. أبتسم، أحتاج إلى تعبير قاطع على وجهي يعكس ثقة شخص يستطيع التلاعب بذكاء بالمصطلحات، أومئ له إيماءة قصيرة، ثم أضع ساقًا فوق الأخرى مُظهرًا جوربي الحريري.

يجلس الطبيب أمامي مركِّزًا بصره عليَّ.

عندئذ أدخل في الموضوع. أنا على سفر، ولديَّ خُراج في ذراعي يعذبني عذابًا شديدًا، فهل يتعطف السيد الدكتور بفحصه لتحديد ما إذا كان يجب فتحه؟

يطلب الطبيب مني أن أُعرِّي ذراعي. أريه ساعدي والمكان المتورم فيه ذا اللون الأزرق المحمر، وتحت البشرة الصديد المتجمع، الورم محاط بعشرات من الوخزات الحمراء الطازجة أو بنية اللون التي شفيت.

يسألني:

ـ هل أنت مدمن مورفين؟

ـ كنتُ! كنتُ، حضرة الدكتور. لقد أقلعت عن الإدمان، واجتزت أسوأ المراحل، حضرة الدكتور. شفيت بنسبة تسعة أعشار.

ـ هكذا. طيب، سأفتح الخراج.

ولا كلمة بعد ذلك. هجرتني ثقتي بنفسي، شاحبًا ومرتعشًا أقف هناك، شاعرًا بالخوف من المشرط الذي سيؤلمني. يستدير الطبيب، ويُخرج من خزانة زجاجية مشرطًا ومِلقاطًا وقطنًا طبيًّا ـ بهدوء أخطو على البساط، أصابعي تلمس ورقًا، ثم...

ببرود واقتضاب يقول الطبيب:

ـ دع الروشتات في مكانها يا عزيزي!

أترنح في مكاني. في اللحظة نفسها أرى المدينة أمام عينيَّ،

المدينة التي تفور حيوية في الأسفل، في هذه المدينة أنا وحيد، وقد استولى عليَّ يأس لا شبيه له. أرى الشوارع، مزدحمة بالذين يسرعون إلى أهدافهم، إلى أناس آخرين، وأنا وحيد مهجور وعلى وشك الانهيار التام. النحيب يختنق في حلقي، ويفتح فمي عنوة.

فجأة تفيض الدموع على وجهي. أنتحب شاكيًا:

ـ ماذا أفعل؟ ماذا عليَّ أن أفعل؟ ساعدني يا حضرة الدكتور، حقنة واحدة فقط!

يقف الطبيب بجانبي، ذراعه ملتفة حول كتفي، يقودني إلى مقعد، ويظل واضعًا كفه على جبيني.

ـ اهدأ، اهدأ، سنتحدث عن كل شيء. هناك دائمًا إمكانية للمساعدة.

موجة عارمة من العرفان بالجميل أشعر بها في قلبي، خلال ثوانٍ قليلة سأنعتق من هذا العذاب المبهم، سأحصل على حقنتي. تتدافع الكلمات من فمي، من الآن أشعر بالحياة خفيفة، سوف أتعالج من الإدمان، ستكون هذه هي آخر حقنة، لن آخذ بعدها أي شيء. أقسم على ذلك.

ـ هل من الممكن أن أحصل عليها الآن، فورًا؟ ولكن من

فضلك، يا حضرة الدكتور، ثلاثة في المائة، وخمسة سنتيمترات مكعبة، وإلا لن أشعر بمفعولها.

ـ لن أعطيك حقنة. لا بد أن تشعر بأن حياتك هذه غير محتملة، وأن تقرر طواعية الذهاب إلى مصحة.

ـ ولكنني سأقتل نفسي يا دكتور.

ـ لن تقتل نفسك. لا يقتل مدمن المورفين نفسه على نحو مباشر، وإنْ فعل، فعن طريق الخطأ بتناوله جرعة زائدة. ستُفضل أن تتحمل أفظع الآلام، من دون أن تتخلى عن احتمال واحد في الألف أن بإمكانك أن تحصل ربما على حقنة. لا، لن تقتل نفسك. ولكن هذه هي فرصتك الأخيرة للذهاب إلى مصحة، بل ربما يكون الوقت قد فات. هل لديك دخل؟

ـ قليل.

ـ هل تستطيع دفع تكاليف العلاج في مصحة خاصة؟

ـ نعم! ولكنهم هناك لن يعطوني المورفين!

ـ سيعطونك في البداية ما يكفي. وشيئًا فشيئًا ستتعلم الإقلاع عنه، سيعطونك مواد أخرى، مواد منومة، ويومًا ما ستتنفس الصعداء وتكون حرًّا.

أرى أمام عينيَّ قدم السرير التي علق فيها اليائس نفسه عدة مرات. هذا الطبيب ثعلب، يريد أن يقنعني بكلامه المعسول، ولكن إذا دخلت مصحة، فسينسى كل ما وعد به.

واصل الطبيب كلامه:

ـ والآن، هل قررت؟ إذا قررت أن تذهب معي شخصيًّا الآن إلى مصحة، فسأعطيك قبلها حقنة. هه؟

أغلق عينيَّ. لقد انهزمت. نعم، أريد أن أتحمل المعاناة، أريد أن أتعالج من الإدمان. أومئ موافقًا.

يستكمل الطبيب كلامه قائلًا:

ـ أتفهم؟ لن أسمح لك بخداعي. بعد الحقنة سأجهز نفسي للخروج معك، وفي تلك الأثناء سأغلق غرفة الانتظار بالمفتاح. سأراقبك طيلة الوقت. هل أنت موافق؟

أومئ ثانية. لا أفكر إلا في الحقنة التي سأحصل عليها قريبًا، قريبًا جدًّا. والآن نبدأ نقاشًا حول مقدار الجرعة، نقاشًا يستمر ربع ساعة، وخلاله ينفعل كلانا. في النهاية يظل الطبيب هو المنتصر، سأحصل على سنتيمترين مكعبين من المحلول، بتركيز ثلاثة في المائة.

يسير إلى الخزانة، ويفتحها، ويجهز الحقنة. أتبعه، أفحص الملصق على الأنبوبة لأتأكد من أنه لا يخدعني. ثم أجلس

على كرسي وأنتظر. أشعر بوخزة الإبرة. والآن... أقف بسرعة، وأذهب إلى غرفة الانتظار حيث أرقد على الشيزلونج. أسمعه يغلق الباب بالمفتاح.

٥

نعم...

أخيرًا...

أخيرًا أصبحت الحياة جميلة. إنها ناعمة، تيار من السعادة ينساب في أعضائي، وخلال انسيابه تتحرك كل الأعصاب الصغيرة برقة ووداعة مثل نباتات مائية في بحيرة صافية. لقد رأيت أوراق الورد. وها أنا أدرك مجددًا جمال شجرة صغيرة وحيدة في الفناء الخلفي. هذه الأوراق. هل تقرع أجراس إحدى الكنائس؟ نعم، الحياة ورعة ووديعة. ضُحى أيام الآحاد الطويلة، تلك الفترات المشمسة بلا نهاية، آنذاك عندما كنت أمارس عملًا، قبل أن أنحدر هكذا، كنت أستيقظ مبكرًا، الشمس تشرق عبر الستائر، الشمس في أوراق الشجر، أجراس الكنائس، وأولى زقزقات الطيور. ثم أسمع صفارة، وعبر الميدان الصغير

الذي ترفرف فيه أوراق شجر الأكاسيا تسير فتاتي مرتدية ملابس بيضاء. أفكر فيكِ أيضًا، يا فتاتي الحلوة التي فقدتها منذ زمن بعيد، عشيقتي الوحيدة الآن هي حقنة المورفين. عشيقة شريرة، تعذبني عذابًا لا ينتهي، ولكنها تكافئني أيضًا مكافأة تفوق العقل.

كم كنتِ محدودة أيتها المرأة! دائمًا ما يتجاوزكِ المرء، يعتقد المرء دومًا أنه وصل إليكِ، غير أنه يكون في مكان آخر تمامًا. أما هذه العشيقة فهي حقًّا داخلي. إنها تملأ عقلي بنورها الساطع الصافي، وعلى شعاعه أدرك أن كل شيء باطل، وأنني لا أعيش إلا للاستمتاع بهذه النشوة. إنها تسكن في جسدي، لم أعد حيوانًا جنسيًّا بائسًا، يتحرق شوقًا إلى الآخر، منهكًا من عدم الإشباع والرغبة، أنا الآن رجل وامرأة في آنٍ واحد، وبوخزة الإبرة يبدأ الاحتفال بالعُرس الأسطوري، العشيقة كاملة الأوصاف، والحبيب الذي يخلو من كل عيب، يحتفلان بأعيادهما تحت شَعري الكثيف.

والآن أريد أن أقرأ، أريد مطالعة المجلات الغبية الموضوعة على طاولة غرفة الانتظار في العيادة، وسيتولد من رحم التفاهات معنى جديد رائع، سيكون لإعلانٍ ما أريج الزهور، وفي إعلانٍ آخر سأتعرف على كامل طعم الخبز الطازج الذي لم تعد معدتي تتحمله. أريد أن أقرأ.

أفتح كتابًا. إنه دفتر ملاحظات، دفتر به ورق أبيض أملس. أتعجب: على هذه الورقة البيضاء وضع طبيب حذر ختمًا به اسمه وعنوانه ورقم تلفونه. كلا، حضرة الطبيب، لن أسرق دفترك، سأنتزع فحسب هذه الورقة. أضعها في جيبي. إذا سويت أطراف هذه الورقة بالمقص، فسأجد ورقة الروشتة التي أتشوق إليها منذ فترة، وهي ستأتي لي ربما بخمسين أو مائة جرعة من تلك النشوة. أنا اليوم في أمان.

سعيد للغاية أنا. أُحرك يدي قليلًا، ثم أخفضها وأعيدها إلى وضع الاسترخاء. يشي انسياب السم في اليد ـ التي سرى الخَدَر فيها لوهلة عندما حركتها ـ بحضور العشيقة الطاغي. ما زلت أشعر بمفعول الحقنة، ما زلت أفرح بحياتي. وبعد ذلك، بعد ذلك لديَّ الروشتة.

عندئذ أسمع خطوات الطبيب، هل سيأخذونني إلى المصحة؟ تضحك عشيقتي، لم أفكر في ذلك، ولكن مجرد مجيئها يقول لي إنه لن يقف في طريقي شيء، ولن يجبرني أحد على شيء. وحيد في العالم أنا، لا التزامات لديَّ، كل شيء باطل، كل شيء إلا المتعة، العشيقة وحدها هي التي لا أستطيع التخلي عنها.

أفكر في أنني غني وسعيد. أليس معي ما يكفي لشراء

المورفين الذي يلزمني؟ هل أنا بحاجة إلى امرأة؟ هل لديَّ رغبة في شيء؟ أتذكر الآن كتابًا لديَّ في البيت، كتابًا لشاعر فيناوي هللكَ، مثلي، عبْر تناوله سمًّا مماثلًا، سأقرأ فيه عن حالات يأسه، وعن إيمانه المتطرف بالسم الذي يتناوله، وسأبتسم مدركًا أنني مثله يائس ومتطرف في إيماني.

يقترب الطبيب ويفتح باب الغرفة. أسحب ساقيَّ من الشيزلونج وأجلس ببطء وحذر حتى لا أسبب الفزع للسم عبر حركة مفاجئة.

أسأله مبتسمًا:

ـ هل سننصرف، يا حضرة الدكتور؟

ـ نعم، يمكننا أن ننطلق الآن بالسيارة.

ـ ولكن قبلها حقنة، يا حضرة الدكتور، سنحتاج بالتأكيد إلى ساعة حتى نصل، ولن أستطيع تحمل كل هذا الوقت.

ـ أنت شبعان تمامًا يا عزيزي.

ـ ولكن المفعول بدأ يتلاشى. وسأُحدث بالتأكيد جلبة وضوضاء عندما أكون وحدي. بجرعة في جسدي سأتبعك مثل حَمَل وديع.

ـ إذا كان ولا بد فعلًا...

يسير أمامي إلى غرفته. أتبعه منتشيًا بالنصر. آه، إنه لا يعرفني. لا يعرف أنه يستطيع، بالحقنة المرتقبة، أن يوجهني كما شاء، ولكن بمجرد أن أشعر بالعشيقة في جسدي فإنني أكون قويًّا وقادرًا على فعل أي شيء.

أنال حقنة ثانية، ثم ننصرف بالفعل. بحذر تام أهبط الدرج. أشعر بالتوغل في جسدي، والدفء العذب، المراوغ والخفيف. آلاف الأفكار الجيدة تمر بي، لأن عقلي قوي وحر، إنه أكثر العقول حسمًا في هذا العالم.

والآن، يفتح الطبيب باب السيارة. أدخل قبله، وبينما المحرك يعمل، والطبيب يجلس ويرتب بعض الأغطية، أفتح الباب الآخر، وأقفز بثبات خارج السيارة، فجسدي فتيٌّ ولياقتي عالية. أغوص وسط الجموع وأختفي. ولا أرى هذا الطبيب بعد ذلك أبدًا.

٦

كنت أعرف أنني لا يجوز أن أسير إلا عدة خطوات حتى لا أفقد مفعول المورفين بحركاتي العنيفة. نظرت إلى الساعة، كانت الثانية عشرة إلا قليلًا. أفضل شيء هو بالتأكيد الذهاب الآن إلى مطعم «بشور» حيث سأقابل «فولف». ولكن على الفور أدركت أن هذا لا يجب أن يحدث. ربما يأتي هو الآخر مبكرًا ويلاحظ أنني حصلت على بضاعة، عندئذ سأفقد أي إمكانية في المستقبل للحصول على دعم منه، وهو الذي يعاني من نقص مزمن في البضاعة!

وهل من اللازم أصلًا أن أقابله؟ أليس في جيبي روشتة تضمن لي عددًا لانهائيًّا من الحقن الرائعة؟ إذا أعطيته الروشتة لصرفها، أو حتى إذا عرف بوجودها معي، فسأفقد نصف هذه المتعة. وأنا أيضًا أعاني من نقص في البضاعة.

أجلس على كنبة مريحة في إحدى حانات النبيذ، وأمامي وعاء به ثلج وقنينة من نبيذ «الراين»، ملأت كأسي الأولى عن آخرها، أقربها من فمي مستنشقًا بأنفاس عميقة أريج النبيذ. عندئذ أوجه نظرة سريعة إلى الساقي، وألاحظ أن أحدًا لا يراني، فأفرغ الكأس في الوعاء. سيتصارع الكحول مع المورفين في المعدة، وسيُحدُّ من مفعوله. لا أفكر الآن سوى في الاستمتاع بهذا المفعول حتى آخر لحظة. على كل حال، كان لا بد أن أطلب شيئًا حتى أستطيع الجلوس هنا مستمتعًا.

ألم يبتهج قلبي بأريج النبيذ، كما ابتهج برؤية البنات المرتديات الأبيض واللائي لم أعد أشتهيهن؟ سآخذ الأريج والبنات معي في أحلامي، ولن يخذلوني مثلما يحدث معي في الحياة خلال النشوة والإفاقة.

أصب لنفسي كأسًا أخرى، وأطلب حبرًا وقلمًا. من جيبي أُخرج الورقة، وأقطعها بالسكين لتكون في حجم الروشتة. لا تعجبني النتيجة، تبدو الورقة أعرض مما ينبغي. أقطع شريطًا آخر، والآن أصبح عرضها أقل مما ينبغي، بالتأكيد أقل مما ينبغي. حجمها يلفت النظر، ولا يجوز أن يلفت شيء في الروشتة النظر.

يستولي عليَّ الغيظ، أتناول الورقة بيدي وأتأملها، ثم

أضعها أمامي على المائدة وأتأملها مرة ثانية. «أقل مما ينبغي»، هكذا أغمغم قائلًا لنفسي، «بالتأكيد أقل مما ينبغي». الغيظ داخلي يتزايد. أتناول الشريط الذي قطعته، وأضعه جوار الروشتة، أحاول أن أجعل منهما ورقة واحدة، وعندئذ أكتشف أن حجم الروشتة الأصلي كان مناسبًا تمامًا. مكتبة سُر مَن قرأ

أندم على تسرعي، لمَ لمْ أنتظر حتى أذهب إلى «فولف»؟ ماذا أفهم أنا في الروشتات؟ إنه هو المتخصص في ذلك! على الرغم من ذلك أمد يدي إلى القلم الحبر وأشرع في الكتابة. تزعجني كأس النبيذ، فأبعدها. ولكنها ما زالت تزعجني. كلا، لا أستطيع أن أكتب هكذا. متعجلًا أمد يدي إلى الكأس، لكنها تسقط، ويسيل النبيذ على الروشتة. لون الختم الأزرق ينمحي على الفور. لقد دُمِّرت كل آمالي.

مثبط الهمة يائسًا أتكئ إلى الوراء. عندئذ أشعر فجأة بما حدث. لقد تلاشى مفعول المورفين، الجوع يعض جسدي مجددًا. هجرتني عشيقتي، قبل أن أستطيع حتى أن أكتب روشتة جديدة.

أقف وأدفع الحساب، ثم أسير إلى مكان اللقاء.

٧

يا لشبعك يا «فولف»، يا لتخمتك! لا يكاد يجلس هناك، بل يرقد مسترخيًا، لا يكاد يستطيع رفع جفنيه، ويحلم ويحلم. أحسده على أحلامه، أحسده على كل دقيقة يقضيها في علاقة سعيدة مع حبيبتي، بينما أعاني أنا معاناة لا أجد لها كلمات.

ـ ماذا فعلت؟

يستشف من ملامحي البائسة وحالتي المتدهورة أنني فشلت في مساعيَّ. يختصر الطريق قائلًا:

ـ مائة، مائة سنتيمتر مكعب. خذ يا «هانس». ولكن كن حذرًا، ولا تأخذ أكثر من اللازم، أليس كذلك؟ حتى تكفينا اليوم.

ـ سنتيمترين أو ثلاثة.

ـ جميل.

ثم يستغرق في أحلامه. أسير إلى دورة المياه والزجاجة ذات السدادة في يدي، أملأ حقنتي التي تسع لخمسة سنتيمترات مكعبة عن آخرها، وعلى الفور أشعر بالسعادة، وأتكئ مسترخيًا.

ثم... ثم... أفزع على صوت ارتطام خفيف. بجانب ذراعي ترقد الزجاجة، وقد سال محتواها على الأرض. «فولف»! لا أفكر سوى في «فولف». سيقتلني إذا عرف بخبر كهذا بعد كل هذا النضال.

ولكنني أمط شفتيَّ من جديد، بعناد وعدم اكتراث. مَن هو «فولف»؟ رفيق شهور المورفين الطويلة، شخص قدم لي المساعدة وقدمت له المساعدة، ولكنني في النهاية لا أكترث بأمره، كما لا أكترث بأي شيء في العالم.

أرفع الزجاجة تجاه الضوء: ما زال فيها سنتيمتران أو ثلاثة. أسحبها في حقنتي، وآخذ هذه الجرعة أيضًا. يفور دمي ويغني، وفي مخي تتولد شرارة برق بعد الأخرى، أما إيقاع القلب والتنفس فيبدأ في الرقص.

عالم كبير ومتوحش! عالم مفعم باللذات، لأن كل إنسان بمفرده، وكل إنسان يمكنه أن يغرز أسنانه في جسد الآخر.

على الهامش، هادئًا، أتطلع إلى كل تلك المغامرات التي تنتظرني على النواصي، الطرق عبر حقول القمح حيث باستطاعة المرء الاعتداء على البنات، البوابات المؤدية إلى صيدليات سأسطو عليها، والصرافون الذين سأسرقهم قبل توريد ما يحملون. وهناك أزهار تشبه أوراقها محارة رقيقة، وقواقع تصدر صوتًا يشبه صرخة حيوان متوحش يحتضر، ثم وشيش البحر البعيد، والنوارس التي تغوص أطراف أجنحتها في الزبد الملحي، وأشرعة الصيادين البنية، والرمل الرنان.

أنا في كل مكان، أنا كل شيء، أنا هو العالم والإله. أخلقُ، وأنسى، وكل شيء إلى فناء. آه، يا دمي الشادي. تغلغلي داخلي عميقًا، يا حبيبتي، واملئيني بنشوة أكثر ضراوة.

أملأُ الزجاجة بماء صافٍ، وأعطيها مبتسمًا وشاكرًا لـ«فولف»، فيرفعها تجاه الضوء قائلًا:

ـ ثلاثة؟ لا، خمسة!

ـ نعم، خمسة.

ولا أنطق بكلمة أخرى.

نجلس في مواجهة بعضنا البعض ونستغرق في الأحلام، ثم يستولي عليه القلق، فيقول:

ـ أريد أن أحقن نفسي.

ثم يمضي.

عندئذ أتناول قبعتي، وأتسلل من المطعم، وأركب سيارة، وتنتزعني عجلاتها، بصوت احتكاكها بالأرض، بعيدًا عن غضبه.

٨

عندئذ جاءتني فكرة مجنونة، أن أجرب قليلًا من الكوكايين. حتى تلك اللحظة كنت قد حقنت «البنزول» مرتين أو ثلاث مرات، وعلى الفور أدركت خطورة هذا السم.

المورفين بهجة هادئة ووديعة، بيضاء ومُزهِرة. إنه يسعد مريديه. لكن الكوكايين حيوان أحمر مفترس، يعذب الجسم، العالم كله يغدو وحشيًّا، مختلًّا، يستحق الكُره، السكاكين تلمع وهي تتراقص في موجات النشوة التي يثيرها، ويسيل دم كثير. ومقابل هذا كله لا يمنح سوى دقائق قليلة من الصفاء التام للمخ، دقائق تجمع بين أكثر الأفكار غرابة، وتمنح نقاءً مبهرًا وموجعًا.

لكنني نجحت في ذلك، ومن أحد السقاة حصلت على «بنزول». حضرت المحلول لنفسي، وعلى الفور غرزت

في جسمي حقنتين أو ثلاثًا، الواحدة تلو الأخرى. أتذكر أنني رأيت في تلك الثواني سعادة البشرية كلها. لم أعد أعرف في أي هيئة تبدت لي السعادة، ولا بأي وجه ظهرت به، لا أتذكر إلا أنني وقفت في منتصف غرفتي وشرعت في التهتهة:

ـ السعادة... أيتها السعادة... أخيرًا أراكِ الآن...

وأنا أتحدث كانت الصورة قد تلاشت مرة أخرى، أجبر مخي بلا فائدة، لا تعود الصورة إلى الظهور، وكل حقنة أخرى أغرزها في جسدي لا تولد أي تأثير غير أنني أصبحت أكثر وحشية واندفاعًا وسرعة. تتطاير الصور حولي، أجساد تقع فوق أخرى، حروف صغيرة أقرأها تفتح بطنها فجأة، وألاحظ أنها حيوانات، حيوانات سرية مطبوعة، حيوانات لا تنتهي، تمرح عبر الصفحات، وتزيح بعضها بعضًا مكونة أشكالًا غريبة من كلمات، ثم أحاول الإمساك بها وأنا أقلد حركتها.

عندئذ أكتشف أنني أتحدث مع خادمة المطعم، أحاول أن أقول لها إنني لا أحتاج إلى عشاء، وأكوِّن في مخي هذه الجملة:

ـ لا، أنا لا آكل شيئًا في المساء.

ولكني في دهشتي الثملة أسمع فمي يقول:

ـ نعم، اليوم أنتظر مجيء الذئب.

عندئذ أسمع شيئًا سريعًا سرعة فائقة، لا أفهم ما يقال، أنفعل، وتبقى كلمات منفردة عالقة في ذاكرتي:

ـ ثقوب في السرير ـ شكاوى ـ نقود ـ قهوة خفيفة.

غضب عارم يضطرم في أحشائي، وهكذا أقفز على خادمة المطعم وأمسك بخناقها. وجدَت المرأة الشقراء القوية نفسها على الجدار، لا حول لها ولا قوة. برزت عيناها الزرقاوان كالمياه، وفيهما تعبير عن الغباء والشعور بالإهانة، أما رأسها فيتحرك حركة صغيرة ثقيلة إلى الكتف اليمنى، ثم تنهار بجسدها اللدن، وتنفلت من يدي بثقلها الكبير كله.

لبرهة أشعر بنفسي يقظًا للغاية، ألتفت حولي: إنني أجلس في غرفة فندق تافه، سرير أبيض كبير منبعج يلاصق الجدار في المكان الذي خنقت فيه الخادمة لتوِّي. أعرف أنني ضِعت، ضِعت ولا خلاص إذا لم أنتهز هذه الدقيقة، هذه الدقيقة التي أتمتع فيها بالصفاء، لكي أنقذ نفسي. لن يساعدني غير أن أخفف بالمورفين هذا الهيجان المجنون الذي يشعل جسدي وروحي.

أعدو نازلًا الدرج، وأدفع بأحد الخدم جانبًا، وأصل إلى الهواء الطلق، أوقف سيارة وأنطلق إلى «بشور».

أحقن نفسي من جديد في السيارة، وأنطلق متحدثًا في ضراوة مع نفسي، ملوحًا بيدي، مرة بعد أخرى يلتفت السائق إليَّ، الناس في الشارع يتعجبون من منظري. كل هذا ألاحظه، ألاحظ أيضًا أن خلية ما في المخ تعرف ما يحدث بصفاء تام، لكن هذه الخلية تقف عاجزة أمام جموح جسدي وروحي. أرى أن من الجنون أن أحقن نفسي مرة ثانية، ثم أحقن نفسي مرة ثانية.

في «بشور» أسأل عن «فولف»، أريد أن أسأل عنه، عضلات وجهي تتراقص، أبذل جهدًا لكي أقول عدة كلمات، تتهيأ تلك الخلية الصغيرة هناك بالأعلى لكي أنطق بها ببطء ووضوح تامين، ولكن ما يخرج من فمي بلا رادع ليس سوى سيل من اللعاب باهت اللون. يهرب الخادم من وجهي، وأنا أهرب من المطعم.

أعدو كالمجنون إلى شقة «فولف»: لا شيء. أهيم بلا هدف في شوارع المدينة، هنا وهناك، خُطاي تتسارع وتتسع، وأنا أصبح أكثر ضراوة. تورم ساعداي وأصبحا كالكرة المنتفخة، الدماء تسيل من أماكن عديدة غُرزت فيها الإبرة، الدماء تلطخ القميص وطرف الكمين ثم تسيل

على يدي. ينتصر الجنون عليَّ انتصارًا ساحقًا، كثيرًا ما أضحك بصبيانية عندما أرسم خطة لتكليف أحدهم بإضرام النار في هذه المدينة الملعونة بكل صيدلياتها التي لا فائدة منها، لكي تأتي عليها النيران مثل كومة قش.

وفجأة أقف في صيدلية، وأصرخ كحيوان، أدفع الناس الذين يحاولون إيقافي، وأكسر لوحًا زجاجيًّا، وفجأة يقدمون لي المورفين، مورفينًا جيدًا، صافيًا، أبيض وزكي الرائحة.

يا حبيبتي الحلوة، ها قد عدت وديعًا. أشعر بالكوكايين وهو يهرب منها، في أعلى حافة المعدة يتشبث لبرهة مثل عطش حارق، ثم يولي الفرار.

يضع عدد من رجال الشرطة أياديهم على كتفي:

ـ تفضل معنا!

أسير خلفهم بخطوات صغيرة هادئة، حتى لا أُفزع حبيبتي. أشعر بالسعادة وأعرف أنني معها، وحدنا، وأن هذا هو المهم.

ويبدأ عذاب العلاج من الإدمان.

ثلاث سنوات لم أكن إنسانًا

١

الاختبار

ذات صباح استيقظت من تلك الإغماءة العميقة التي كانت تسمى آنذاك نومًا. أدركت فجأة أن الحال لا يمكن أن تستمر هكذا.

أصب في جوفي ربع لتر من الكونياك، فيبدأ عقلي يشتغل، لم تعد يداي ترتعشان بشكل كبير، المعدة تعمل بدلًا من أن تؤلم. ولكن: لا بد أن تكون للأمر نهاية.

أتذكر: اليوم هو السبت، في الثامنة صباحًا يجب عليَّ التوجه إلى المدينة، إلى البنك، وأن أسحب ١٢ ألف مارك، وأن أدفع عدة آلاف من الماركات. عندئذ أستطيع الاستمتاع بنهاية الأسبوع. لن أعود إلى هنا قبل مساء الأحد.

وبينما أحتسي الربع الثاني من الكونياك، تتكوَّن في ذهني خطة: سآخذ معي نقودًا وفيرة خلال السفر، خمسمائة، ستمائة مارك. فإذا بذرتها عن آخرها مرة أخرى، فإن هذا يعني النهاية. أما إذا أحضرت النقود المسحوبة بسلامة إلى هنا، فمعنى هذا أن هناك طريقًا للنجاة، طريقًا للصعود من الهاوية.

عندئذ يبدأ الصباح المكتبي كما يبدأ دائمًا، وأحفظ ماء وجهي أمام الناس كالمعتاد. ثم تراودني المخاوف الصغيرة المألوفة: هل تفوح مني رائحة الكونياك؟ هل عليَّ أن آكل قطعة من الخبز للحفاظ على مظهري؟

بعد مرور ساعة تقلني السيارة إلى محطة القطار. ما تكاد السيارة تقترب من فناء المحطة، حتى أبدأ أبحث في جيوبي. لقد نسيت فعلًا الشيك بقيمة ١٢ ألف مارك، وهو الهدف الأساسي من الرحلة. أطلب العودة، فتصفر عجلات العربة في الفناء من جديد، ويصيح المدير بشيء في اتجاهي. أسرع إلى الخزينة، وآخذ الشيك.

ـ هيا يا «بوندر»!

دائمًا تسيطر عليَّ فكرة أنه إذا لم ألحق بالقطار، فسأفشل في الاختبار.

ألحق به، وما أكاد أجلس في الديوان حتى أشعر بالظمأ إلى الكحول يعذبني. في كل محطة أدير بصري متسائلًا ما إذا كان الوقت قد حان لشرب كأس واحدة، كأس واحدة على الأقل من الكونياك.

سبع سنوات وأنا مقيد بسلسلة الإدمان، مرة مورفين أو كوكايين، ومرة إيثر أو كحول. مصحات، ومستشفيات للمجانين، الحياة في حرية، مقيدًا بالإدمان، إدمانٌ يسلمني إلى آخَر.

والصراع الأبدي للحصول على المال لاقتناء السم الشيطاني الذي يلتهمني، السحوبات التي أتفنن في الأكاذيب بشأنها والتي ينبغي أن تلفت نظر أي مدقق حسابات، والقناع الذي أرتديه حتى لا يلاحظ أحد شيئًا. والآن أنطلق إلى المدينة كي أجتاز الاختبار حتى أبدأ حياة جديدة.

في البنك يسير كل شيء على ما يرام، يعرفونني هناك، وهكذا أحصل على النقود. وفي بنك آخر أودع ١٥٠٠. سيساعد هذا في طمس آثاري إذا تحتم عليَّ الهرب: أي نصاب يسدد من المال المُختَلس ديون صاحب المال؟

أنا الآن حر. أتجول في المدينة قليلًا. أحواض الميناء تعكس الزرقة المشمسة، يتدافع الناس، ويسرعون الخطى، يثرثرون

ويضحكون ـ غير أني أجد خطواتي تقودني تلقائيًّا إلى حارة المواخير عند الميناء. هناك يعرفونني، كالنار في الهشيم تسري الجملة من بيت إلى بيت: «هانيس» هنا.

وفي ساعة متأخرة ما ـ بينما هنَّ في الداخل يحتفلن ويحتسين الشمبانيا، يتشاجرن أو يتعاركن ويبكين ـ أحصي أموالي وأنا جالس على المرحاض: لقد استهلكت شيئًا من الاثني عشر ألف مارك. لم أنجح في الاختبار.

أسير في الشارع متجهًا إلى المحطة. القطار يمرق مصلصلًا مرة أخرى. وتبدأ رحلة الهروب. «هامبورج». يوم ناعس. الليل في «سانت باولي». الصباح التالي في الطائرة إلى برلين. الآن من الممكن أن يلاحقوني. ثم أسافر إلى «ميونيخ» و«لايبتسيج» و«دريسدن» و«كولونيا».

الوضع لا يتغير أبدًا، لا يدعني السم في سلام. لا أستطيع تناول أي طعام. النوم ـ أو ما نسميه نومًا ـ ليس سوى إغماءة كلها عذاب.

أعود ثانية إلى برلين. ماذا أفعل هنا؟ ماذا أفعل في أي مكان؟ أقابل فتاة كنت أراها من قبل أحيانًا. يبدو أن الوقت قد حان. أطوقها بذراعي، وأقربها مني، فتقول هي بوداعة تامة:

ـ ولكنك تشرب؟ أليس كذلك، أنت تشرب؟

٢

أتظن أن «التخشيبة» جميلة؟

يتحدث علماء الجريمة عن صعوبات إلقاء القبض على المجرمين. أما خبرتي فهي أنه من الصعب أن تسلم نفسك وأن يقبضوا عليك.

أذهب إلى نقطة الشرطة بجوار حديقة الحيوان في برلين قائلًا:

ـ من فضلكم، اقبضوا عليَّ!

ـ لماذا؟ ما السبب؟

ـ لقد اختلست قبل نحو أسبوع ١٢ ألف مارك من الخزانة في «نويشتات»، وقبلها صرفت مبالغ كبيرة لنفسي وعبر تدوينات خاطئة في الحسابات ـ سيان! ألقوا القبض عليَّ إذن!

ـ ما اسمك؟

ـ «هانس فالادا»، من «نويشتات».

بنظرة طويلة يحدق فيَّ ضابط الشرطة برتبة ملازم، أو برتبة أخرى.

ـ إذن، انتظر هنا. هل صحيح ما تقوله؟

ـ طبعًا. ما مصلحتي في أن...

يسير إلى غرفة جانبية. ما عداي ليس ثمة مدنيون في قسم الشرطة سوى امرأة تبكي بحرقة ومعها صبي. يستجوبون المرأة بتهمة النشل. هناك أيضًا رجل مخمور تمامًا يدَّعي بإصرار أن نقوده سُرقت منه. أحد رجال الشرطة يريد أن يواسيه، لكنه يزداد هيجانًا، الشرطي الذي يحقق معه يلتفت إليه، وفي اللحظة نفسها تهمس لي المرأة المنتحبة:

ـ حاول أن تخرج من هنا أيها المعتوه! أتظن أن «التخشيبة» جميلة؟

وسرعان ما يبدأ التحقيق، والصراخ، وصياح السكارى، في حين رحت أنا أفكر في مغزى «معتوه» و«التخشيبة».

يعود ضابط الشرطة ويقول لي:

ـ أنت غير مطلوب لدينا. هيا، اذهب إلى بيتك، ونم حتى تفيق من السُّكر.

ـ ولكنني قلت لك إنني اختلست ١٢ ألف مارك...

ـ انصرف من هنا بحكايات السكارى هذه. هل لا بد أن آمرهم بطردك من هنا؟

ـ لا بد أن يكون هناك أمر بالبحث عني...

ـ ولا كلمة مكتوبة في صحيفة المطلوبين للعدالة. أطالبك بأن تغادر قسم الشرطة.

ـ ١٢ ألف مارك...

ـ واحد، اثنان... هل ستنصرف؟

ـ في «نويشتات»، قمت بـ...

ـ للمرة الثالثة! يا «شارف»، يا «بلونك» ألقيا بهذا الخنزير السكير خارجًا!

وهكذا أنصرف.

٣

المباحث الجنائية ـ قسم الطوارئ

بعد ثلاث ساعات ـ الساعة الآن الواحدة بعد منتصف الليل ـ أقف أمام باب في مبنى البلدية المبنيِّ بالطوب الأحمر في ميدان «ألكس». أرى لافتة مكتوبًا عليها: «المباحث الجنائية ـ قسم الطوارئ». أقرع الباب وأدخل.

حول مائدة كبيرة يجلس عشرة رجال أو خمسة عشر رجلًا. البعض يقرأ، والآخر يثرثر، وكثيرون يدخنون، وكلهم يبدو عليهم السأم. أقترب منهم قائلًا:

ـ أرجوكم، ألقوا القبض عليَّ. لقد اختلست عشرين أو ثلاثين ألف مارك.

تتجه الوجوه كلها ناحيتي، ويتفحصونني. وعلى ما يبدو

فإنهم اتفقوا على الرأي فيما بينهم، من دون أن يتبادلوا النظرات. يعودون إلى قراءة الصحف والثرثرة والتدخين والسأم. واحد فقط، ذو شارب رمادي مشعث، يسألني:

ـ شربتَ أكثر من اللازم، أليس كذلك؟

ثم يضيف مؤكدًا وهو ينظر إليَّ مجددًا:

ـ مسموح للمرء بذلك.

وبعدها يشرع في السؤال عن اسمي ومحل إقامتي ونوع الجرم المرتكب. يبدو أن إجاباتي ترضيه، لذلك يقول لزميل له:

ـ ألقِ نظرة على صحيفة المطلوبين للعدالة، يا «فيلي».

ـ اسمي غير مكتوب.

ـ لا؟ ومن أين لك أن تعرف؟ هل تعتقد أن «الدوق توتس» الذي تعمل عنده سيهبك ثلاثين ألف مارك؟

أسرد له ما حدث في قسم الشرطة بجوار حديقة الحيوان.

ـ إذن، انتظر قليلًا.

ويختفي مع «فيلي» في غرفة جانبية.

أقف وحدي، بدون مراقبة. أسير عدة خطوات، أُخرج من جيبي سيجارة، الأخيرة، وأشعلها. ثم أسير عدة خطوات

أخرى، وأجد نفسي عند الباب. ألقي نظرة إلى الخلف: يقرأون، ينعسون، ويشعرون بالسأم.

أفتح الباب، من دون حذر كبير، بل كما يفتح المرء بابًا، وأقف في الممر. ينغلق الباب خلفي، وأواصل سيري، أخرج إلى الشارع، ولا يوقفني أحد. لكنني أسير عائدًا إلى المباحث الجنائية.

يعود ذو الشارب الرمادي ويقول:

ـ لقد تحدثت تلفونيًّا مع قسم شرطة حديقة الحيوان. أنتَ كنتَ بالفعل هناك.

للمرة الثانية يتطلعون كلهم إليَّ. كوني قلت الحقيقة في هذه النقطة، كوني أريد للمرة الثانية أن يُقبض عليَّ، فهذا يحولني من سكير عنيد يتصرف تصرفات عبثية إلى إنسان يستحق الرعاية. يحضرون لي كرسيًّا، ويضعون على المائدة علبة سجائر، ثم يفتحون المحضر. لكنهم يطالبونني في البداية:

ـ ضع كل شيء في جيوبك على المائدة!

أفرغ جيوبي. ينصب الاهتمام على حقيبة الأوراق التي أحملها ومحفظتي.

ـ هل هذه هي كل النقود التي ما زالت بحوزتك؟

على المائدة سبعة «ماركات» وعشرون «بفنكًا».

ـ ولهذا تأتي إلينا! لأنك لا تعرف إلى أين تذهب!

انطفأ اهتمامهم بي، والسجائر تختفي ثانية (يقولون: «لقد دخنت ما يكفي للسنوات القادمة»)، وبسرعة فائقة ينتهي المحضر، وفي تمام الساعة الثانية أرقد في زنزانة، بعد أن ألقوا القبض عليَّ فعلًا.

٤

البق

عندما أستيقظ، أعتقد أني ما زلت أحلم. تتحرك حشرتان عريضتان مصفحتان لونهما بني محروق أمام عينيَّ مباشرة، ولذلك تبدوان عملاقتين. أرجع برأسي إلى الوراء، وأشعر برغبة لا تطاق في الهرش في الوجه والذراعين، ثم أدرك: إنه البق.

لم أرَ هذه الحشرات حتى الآن إلا على الملصقات الدعائية لمبيدات الحشرات، لكن الضوء النافذ من الزجاج الحليبي لباب الزنزانة يقضي على كل شك: بق. أفعصه. تترك الحشرات على الغطاء بقع دم عريضة. والآن أفهم سر البقع البنية السمراء على الجدران. ليست هذه كائنات مفردة تم تفجيرها، بل رسل شعب كبير عليَّ أن أتعامل معه.

الشعور الأول الذي ينتابني هو الغيظ. إنهم صارمون في السجون، يمنعون هذا أو ذاك، لكن البق خارج أي خطط عقابية. ولكن حتى السجين من حقه أن يرفض وجود البق. سأقدم شكوى في الصباح الباكر.

أستغرق في النوم من جديد، ولكنني أستيقظ مرة أخرى على ألم قارص. عاد البق. أحاول العودة إلى النوم مرات عدة، ثم أنهض وأرتدي ملابسي، منتظرًا ـ ذاهبًا آتيًا ـ قدوم النهار.

بمجرد أن أسمع صليل المفتاح في الباب، أقول:

ـ هنا يوجد بق!

ـ بق؟ السجين السابق لم يشتكِ أبدًا من ذلك. أخبر رئيس النقطة بذلك، عندئذ سيعطونك مُبيدًا.

ولكنني لا أعلم مَن هو رئيس النقطة، لذلك أبلغ عن الأمر في كل مرة يفتحون فيها الباب، عشرين مرة في اليوم. ولكن لا يصلني أي مبيد للبق. عندما يحل الظلام، ويسود السكون في المكان، أقرع الباب بصخب، فأسمع صوتَ ساخطٍ يزعق في الخارج:

ـ ألا تريد أن تهدأ! ماذا حدث؟

ـ أريد مبيدًا للبق!

مكتبة
t.me/soramnqraa

ـ بلِّغ عن ذلك في الصباح عندما يفتحون الباب. والآن كن هادئًا، وإلا سأقبض عليك!

ـ أعطِني زنزانة أخرى.

ـ كلها مشغولة.

ثم أسمع الخطى المتثاقلة تبتعد عني. أقضي هذه الليلة أيضًا وأنا أسير في الزنزانة ذهابًا وجيئة، شاعرًا بالبرد، وكلي غضب.

في الصباح التالي أبلغ عن الأمر ساخطًا.

ـ آه، أنتَ صاحب البق! لم تكن بالتأكيد من قبل في ميدان المعركة.

ولكنهم يعطونني مبيدًا للبق. يحمل سجينٌ، يعمل مساعدًا في السجن، فرشاةً ووعاءً صغيرًا به سائل أبيض نفاذ الرائحة.

ـ والآن، احرص على أن تظل زنزانتك نظيفة، ولا تتوانَ عن الرش لمكافحة البق. على الأقل يكون لديك شيء تفعله.

أنا وحدي الآن من جديد. ولديَّ عمل. أنزع أغطية السرير، وأتفحص الحشية ومسند الرأس. في بعض الثنايا تقبع خمس أو ست حشرات، أفعصها قبل أن تهرب مني.

الحشرات الكبيرة ذات لون بني محمر، أما الصغيرة فيميل لونها الهُلامي إلى البياض. والآن يجيء دور السرير نفسه. بعض الألواح الخشبية تحت المرتبة يمكن حلها، أرش كل مكان، وكل الشقوق. تهرب الحشرات. أقتلها. ستكون ليلة هادئة!

أرقد على سريري في وقت مبكر حتى أكون نشيطًا قبل بدء التحقيق التالي. غير أنني أستيقظ ثانية من الألم القارص المعروف الذي يسبب على الفور رغبة في الهرش. يبدو أن عملي النهاري ذهب هباء، لقد عاد البق.

السيئ في الأمر هو أن الضوء الكهربائي ـ لسبب ما ـ لم يعمل في تلك الليلة في زنزانتي. أشك في كوني أتوهم الهرش. لكنني أمسك في الظلام بحشرة على وجهي، وأخرى تتمشى على طول ساقيَّ. أتفحص عبر الرائحة ما إذا كنت مخطئًا. البق له رائحة مميزة. إنها رائحة حلوة ـ لونها أخضر ـ يذكر بالعشب. بعد أن شممت الرائحة، فكرت في «فلوبير» الذي كان يجد رائحة البق على جسد «كوتشوك هانم» مهيجة للغاية.

البق يدفعني إلى الجنون دفعًا. طوال اليوم رأيت في كل مكان تلك الكائنات المسطحة البنية والبيضاء، حتى أثناء الكتابة بدت الحشرات وكأنها تريد أن تختبئ في ثنايا

ريشة الكتابة. في الحبس الذي يخلو من أحداث تأخذ تلك الحشرات أهمية مفزعة. والآن بدأت أسأل نفسي: ربما يكون البق مجرد هلوسة من طرفي؟

أتذكر أنني كنت أشعر خارج السجن برغبة مماثلة في الهرش أحيانًا، عندما لا أحتسي خمرًا في المساء. بالطبع لم أكن أجد في الصباح التالي آثار القرص على الذراع والساق. ولكنني أتذكر الآن أن امرأة تعاني من الهستيريا كانت «تفكر» بشدة في ورم، فلما تستيقظ في اليوم التالي تجده بالفعل. ماذا إذا حدث هذا معي؟

عبثًا أحاول أن أعزي نفسي قائلًا إنني رأيت تلك الحشرات بعينيَّ. قد تكون تلك الرؤية تحديدًا ليست سوى هلاوس؟ من دون جدوى أستدعي إلى الذاكرة ما ظهر لي بالأمس على مسند الرأس، حشرتان سمينتان لونهما بُني تركتا آثارًا دموية غزيرة جدًّا. كما أتذكر كيف خرجتا من شق في سريري، بين الخشب والحديد، خلال قيامي برش المبيد. أراهما الآن قابعتين في ثنايا المرتبة المحشوة قشًّا.

كل هذا لا يبرهن على شيء إلا لو رآها أحد غيري. لكن الموظف قال: «السجين السابق لم يشتكِ أبدًا من ذلك». ومن المستبعد تمامًا أن يتحمل أي إنسان أن تقوم الحشرات بمص دمه من دون أن يقاوم.

عندما أحضرا لي مبيد الحشرات السائل، الحارس مع السجين الذي يساعده، أريتهما ساعدي الأيمن الذي يبدو فظيعًا حقًّا بسبب عشرات القرصات، لكنهما تجاهلاني، وكأنهما لم يريا شيئًا. إذن...

عصر اليوم أيضًا، عندما كنت أكتب، شعرت بدغدغة في قفاي، فمددت يدي وشعرت باختفاء حشرة تحت قميصي. انتزعت القميص على الفور ـ كنت أجلس مرتديًا قميصًا وسروالًا فقط ـ وكان لا بد أن أجد الحشرة لو كانت موجودة، إلا إنني لم أجد شيئًا.

خلال الكتابة ظهرت على باطن ساعدي الأيسر، والذي كنت أمسك به الورقة، قرصتان أو ثلاث قرصات. كيف كان ممكنًا أن تأتي حشرة بق إلى هذا الساعد العاري الذي يقع أثناء الكتابة تحت بصري طوال الوقت تقريبًا، ثم تمتص دمي، وتنصرف، من دون أن أراها؟ إذن لم تكن هناك بقة، بل...

سيكون من الأفضل أن أنهض، وأمضي ليلتي متمشيًا. لقد جُننتُ. من المفروض أن يهتم طبيب بأمري. ألا يجب أن يفحصوني قبل الدخول؟ بالتأكيد، هذا مكتوب في لوائح السجن. تمامًا. مكتوب.

٥

الاستجواب الوحيد

كنت أنتظر من ساعة إلى أخرى، ومن يوم إلى آخر حتى يحدث شيء. لا شيء يحدث. في بعض الأحيان عندما أشعر بالضجر ـ من قراءة الأخبار التي لا تتغير أبدًا والمطبوعة على ورق التواليت الخاص بي، أو من مطاردة البق، أو من التمشي جيئة وذهابًا في الزنزانة ـ أتخيل أنهم نسوني.

ولكن لا، إنهم لا ينسون المرء هنا. لكل شيء وقت، كثير من الوقت. في اليوم الخامس تُفتح زنزانتي على غير المعتاد. شخص مدني يلقي نظرة إلى الداخل.

ـ «فالادا»، تعالَ معي.

ممرات، أبواب، أسير في جزء من المبنى ليس سجنًا،

وأدخل غرفة بها موظفان. على مائدة أرى حقيبتي. إذن، لقد وجدوا الفندق الذي نزلت فيه. إنهم ماهرون في البحث.

ـ هل أنت «فالادا»؟ هل وقَّعت على هذا؟

ـ نعم، هذا هو المحضر.

ـ لقد أرسل «الدوق توتس» برقية. لقد ظنوا أن حادثًا وقع لك.

ـ نعم.

ـ الاختفاء شيء جميل، أليس كذلك؟ ولكن عندما تنتهي النقود، فإن ابن أمه المدلل يلجأ إلى الزنزانة.

ـ نعم.

ـ هل تتمسك بصحة ما وقَّعت عليه؟

ـ نعم.

ـ هذه أول مرة لك، أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ واضح.

يتدخل الموظف الثاني الذي كان يراقبني طيلة الوقت قائلًا:

ـ لقد كسا نفسه كسوة جديدة.

ثم واصل، موجهًا كلامه لي:

ـ هل اشتريت هذه الأشياء من المال المسروق؟

ـ نعم.

ـ هيا، سِر واخلع ملابسك. هذه الأشياء ليست ملكًا لك.

يقف الاثنان ويتطلعان إليَّ وأنا أخلع ملابسي.

ـ هنا. ارتدِ الأشياء من الشنطة. هل هذه أشياؤك؟

ـ نعم.

مرة ثانية أرتدي ملابسي.

ـ البدلة كأنها جديدة. لقد اشتريتَها بالتأكيد من المال المسروق؟

ـ لا بد أنني في نهاية الأمر كنت أرتدي شيئًا قبل أن أسافر.

ـ لا نستطيع أن نعرف ذلك. ربما كنت ترتدي ملابس متشردين دفنتها في أقرب حفرة.

ـ نعم.

ـ هيا، بسرعة. ضع الأشياء في الشنطة. بالمناسبة، لقد قدم صاحب الفندق بلاغًا ضدك، يتهمك فيه بعدم دفع الحساب.

ـ أحسن.

ـ ماذا تعني بـ«أحسن»؟

ـ أريد عقوبة طويلة. أريد أن أتوقف عن الشراب هنا.

ينفجر الاثنان في الضحك بلا رادع.

ـ لا تخف! ستكون طويلة جدًّا!

ـ أتعتقد أنك في مصحة للعلاج من إدمان الخمر؟

يتفحصني كلاهما بعد أن حل الصمت.

ـ قل لي، أنت تريد تطبيق المادة ٥١؟

ـ على العكس.

ـ العكس أمر جيد. ولكنني أقول لك: إذا حاولت، فسوف ترى ما يعني ذلك. هل كنت مرة في قسم المجانين في أحد السجون؟

ـ لا.

يقول لي بنبرة ذات أهمية:

ـ ينالون هناك صعقات كهربائية. ليس هذا شيئًا للمدللين!

ـ لا تحكِ لي أساطير. كما أنني أطالب بعرضي على قاضٍ.

ـ أرسل له بطاقة باسمك.

ـ من حقي أن أُعرض على قاضٍ خلال الساعات الثماني والأربعين الأولى. أنا الآن محبوس منذ ما يزيد على مائة ساعة.

ـ إذا بدأت تعد الساعات، فسيكون لديك في السنوات القادمة عمل كثير. والآن، هيا، ارجع إلى قصرك! قف، القبعة ستدخل إلى الشنطة.

ـ لكني لم أشترِها من المال المسروق.

ـ القبعة جديدة تمامًا.

ـ أحيانًا كنت أشتري أشياء جديدة.

ـ طيب. عد إذن إلى زنزانتك!

٦

تخاريف

قضيت في الحبس ستة أشهر وخمسة أيام. في تلك الفترة كنت كل يوم أنتظر أن يتم عرضي على القاضي، أو أن أحصل على الأقل على عريضة الاتهامات: لكن، لم يحدث شيء.

خلال نصف العام هذا تنقلت بين ثلاثة سجون وما يزيد على عشرين زنزانة مختلفة. كنت دائمًا أعتقد أن تغيير المكان له علاقة ما بتطور الأمور في قضيتي: ولكن، لم يحدث شيء.

كان عندي وقت، وقت لا ينتهي. واستخدمت هذا الوقت مثلما يستخدمه معظم المحبوسين على ذمة التحقيق، استخدمته في التفكير ثم التفكير. من الأمراض المنتشرة في فترة الحبس الاحتياطي مرض الهلاوس والتخاريف.

باجتهاد رحت أطلق العِنان للتخاريف. في الأسابيع الأربعة الأولى كان البق هو الموضوع الذي تسيد تفكيري وأفعالي. ليس هناك إنسان حر يستطيع أن يتخيل إلى أي حد استولى عليَّ الخوف من البق. ما أكثر الأيام والليالي التي قضيتها سائرًا في زنزانتي والغضب يجعلني أنتفض انتفاضًا، كنت فجأة أنقض على السرير نازعًا كل ما عليه، وكالمجنون أظل أفتش عن الحشرات التي كنت أكتشفها على السقف وعلى الأرض، وفي شقوق الممر. كانت الحشرات تهرب مني، ثم تظهر من جديد ساخرة مني. لا طبيب استطاع مساعدتي في التغلب على خوفي من هذه الحشرات، وهو خوف تعمق داخلي بسبب امتناعي عن تناول الخمر.

ثم نقلوني إلى سجن آخر، وتلاشت الوسوسة التي أصابتني بسبب البق. لكن مخاوف أخرى هجمت عليَّ. ثمة زر جرس مكتوب عليه «إنذار» في الحوش حيث كنا نتمشى لمدة نصف ساعة. كل مرة أقضي فيها وقتًا حرًّا في الحوش، كنت أصارع نفسي حتى لا أضغط على الجرس لأرى ما سيحدث عندئذ. ومع ذلك جاء هوس تنظيف الزنزانة، حيث كنت أقضي الساعات في حك الأرضية المكسوة بمشمع اللينوليوم حتى تلمع، مستخدمًا في

ذلك فرشاة الكنس اليدوية. منهكًا تمامًا كنت أجلس على الكرسي المنخفض وأضم ساقيَّ حتى لا أتلف الصورة المنعكسة على الأرضية، إلى أن أكتشف زاوية من الزوايا لا تلمع مثل باقي الأرضية، وهكذا كنت أبدأ العمل من جديد.

الآخرون كانوا يعانون من أمراض أخرى. لفترة طويلة كان جاري في الزنزانة سكرتيرًا أول في وزارة العدل، وكان متهمًا بتحذير متهم قبل إلقاء القبض عليه. هذا الرجل نسي عائلته تمامًا، وكذلك وضعه في السجن، وموعد المحاكمة القريب، وذلك لأنه أراد أن ينفذ فكرة إلغاء الحبس الاحتياطي.

على ما يبدو كانت فترة الحبس الاحتياطي فترة صعبة للغاية بالنسبة إليه في البداية، كل ما كان يعتبره في مهنته شيئًا بديهيًّا، اختلف تمامًا منذ أن حُبس في الزنزانة. الآن بدا له السجن الاحتياطي جنونًا وجريمة.

كانت تخطر على بال الرجل، الذي كان يبدو في البداية عاقلًا تمامًا، أفكار مجنونة جدًّا، وطفولية للغاية، وكان يريد تنفيذ هذه الأفكار عبر رسائل لا تنتهي، يوجهها إلى موظفي السجن والنيابة، وإلى القضاة والوزراء. إحدى تلك الأفكار وضعُ ختم لا يمكن محوه على

اليد اليمنى لأولئك الذين ما زالت قضاياهم تُنظر في القضاء، وذلك بدلًا من فترة الحبس الاحتياطي. ولأنه من الممكن إخفاء الختم بارتداء قفاز، فقد طالب بعدم بيع أي تذكرة قطار خارج المدينة إلا لو أظهر كل شارٍ يدَه اليمنى لموظف بيع التذاكر، كدليل على براءته وخلو يده من الأختام.

لفترة كان لديَّ جار سيطرت عليه فكرة واحدة، هي أنه «ليست لديه مادة». في البداية لم أفهمه، وخاصة أنه لم يكن من السهل أبدًا، بسبب الحراسة الدائمة، أن يتحدث السجين مع جاره. وفي النهاية أدركت أنه يقصد أن الجرم الذي ارتكبه لا يقع تحت طائلة مادة من مواد قانون العقوبات. كان ضيفًا يوميًّا تقريبًا عند قاضي الحبس الاحتياطي، والظاهر أنه، بوقاحته وغبائه والفكرة المسيطرة عليه، قد دفع بالقاضي إلى حافة اليأس. ما زلت أتذكر وصفه لأحد تلك التحقيقات:

القاضي: «أين تعرفت بالمدعو «شارف»؟».

«بيترسن»: «في فندق «براندنبورجر هوف» حيث أسكن وحيث كان يحتسي بيرته في المساء».

القاضي: «ثم بِعت له خشبًا؟».

«بيترسن»: «كلا، لم أبع له أي خشب».

القاضي: «قل الحقيقة، واعترف».

«بيترسن»: «هذه هي الحقيقة».

القاضي: «لكنك كنت على علم بأنه يبيع خشبًا؟».

«بيترسن»: «لم أعرف ذلك إلا في عيد الميلاد عندما انكشف كل شيء. عندئذ طالبني بالتوقيع على عقد الشراء».

القاضي: «لأنك بعت له الخشب».

«بيترسن»: «كلا، ولكن لأنني... مع زوجته، ولكن ليس هناك مادة تجرم ذلك».

القاضي: «يا إلهي! لا تعد ثانية إلى هذا الهراء! أيها الحارس، أخرج هذا الرجل من هنا».

وبالطبع وجدوا له مادة في قانون العقوبات، وحكم على «بيترسن» بعقوبة صارمة بتهمة نقل حيازة الخشب على نحو غير مشروع. في ليلة صدور الحكم نقلوه إلى زنزانة الخطرين المبطنة بالكاوتشوك. لم يستطع أن يتجاوز ذلك الموقف: أنهم وجدوا مادة قانونية للحكم عليه.

أما أكثر الأمراض انتشارًا فهو مرض الكلام المستمر عن الحالة الخاصة بالمتحدث. إنه أمر إنساني جدًّا أن أَبسط الأشياء تصبح في عين الشخص المعني قضية ضخمة لا بد من طرحها أمام كل موظف وكل زميل سجين. لفترة طويلة كنت أنام في زنزانة بها معلم في المدرسة الابتدائية قام بتزوير كمبيالة تخص العائلة. لم يَكِل الرجل من سرد حالته. وبعد أن أضجر كل المحيطين به بهذه الحكاية لفترة طويلة، حتى لم يعد أحد يصغي إليه، تسلق شباك الزنزانة مستخدمًا مائدة وكرسيًّا منخفضًا، ومن ثَمَّ كان بإمكانه أن يرى سور السجن الواقع أمامه. ومن هناك بدأ ينادي ويجذب الانتباه إلى أن ظهر رأس أحد المساجين، فشرع على الفور، وبسرعة محمومة، يحكي له «كل شيء».

كم من مرة أتى إلى هذا المدرس «المُحضر» ـ كما نطلق في لغة المساجين على الشخص الذي يقوم بنقل المائدة والكرسي من زنزانة السجين حتى لا يستخدمهما مرة أخرى في التسلق. ولكن كل هذا لم يسفر عن شيء، حتى الحارس الذي كان يزعق في وجهه كان المدرس يعطيه تقريرًا بآخر التطورات، واضعًا قدمه في فتحة باب الزنزانة حتى لا ينغلق، ثم يتحدث ويتحدث ويتحدث.

رأيت المدرس مرة أخرى لاحقًا في السجن، وكان لا يزال يتحدث عن حالته. بعد إطلاق سراحه بقليل أطلق الرصاص على زوجته وعلى نفسه مع أن وضعه المالي لم يكن سيئًا أبدًا. على ما يبدو لم يستطع أبدًا أن يتجاوز رفضهم إعادة التحقيق في قضيته، وهكذا أدرك أن الناس خارج السجن لا تعنيهم قضيته إطلاقًا.

وهناك الجزء الأكبر من المساجين الذين لا يستطيعون التغلب على الافتراق عن العائلة، عن الأطفال أو الزوجة، وخصوصًا في بداية فترة الحبس الاحتياطي، حيث يصعب للغاية، في معظم الأحيان، الحصول على إذن بالتحدث مع العائلة. عندئذ يعتقد السجين أنه أصبح مهجورًا مُحتقَرًا، فتحدث انهيارات عصبية فظيعة، بكل ما فيها من درجات، من البكاء الصامت وصولًا إلى الهيجان الثائر. لكن كل ذلك لا يقدِّم شيئًا أو يؤخر، إطلاقًا. نادرًا ما يتدخل طبيب. فالتخاريف هي في نهاية الأمر جزء من الحبس الاحتياطي، وكل الموظفين يعتبرون التخاريف والهلاوس شيئًا بديهيًّا.

ومن ذكرياتي المرعبة ما قاله موظف طيب جدًّا لشخص منهار انهيارًا كاملًا كان يبكي على الدوام ليُسمح له برؤية زوجته:

ـ كل هذا ليس بالأمر السيئ. اقضِ معنا سنة، عندئذ ستتعود على الأمر، وعندها لن تريد الخروج.

وبالفعل، ثمة سجناء يريدون، بعد انقضاء عام، أن يغيروا بالفعل وضعهم، لكنهم لا يستطيعون، لأنهم أصبحوا مرضى نفسيين. وهذا هو أكبر أخطار السجن.

٧

«روبنسون» في السجن

يشبه الرجل الذي يدخل السجن للمرة الأولى «روبنسون كروزو» الذي أجبرته عاصفة على العيش في جزيرة مهجورة. كل القدرات التي طورها في حياته خارج السجن لا تساعده هنا كثيرًا، بل إنها تعوقه. عليه أن يبدأ مرة أخرى من جديد. إذا أراد أن يحيا حياة محتملة، فعليه أن ينسى ما يعرفه، ويتعلم ما تعلمه «روبنسون».

إشعال النار، على سبيل المثال، بدون أعواد ثقاب، وبدون الولاعات الحديثة التي تعمل بالبنزين. لقد نجحت في الأيام الأولى في أن أحصل على قليل من التبغ، أما الكبريت فلم يكن من الممكن الحصول عليه، لا بالحيلة ولا بالإقناع ولا بالتسول، الكبريت في السجن شيء يبدو نادر الوجود.

ذات مساء كنت أجلس شبه يائس في زنزانتي، أمامي أربع سجائر أو خمس، يعذبني جوع ضارٍ إلى التدخين، ولم يقف في سبيل إشباع رغبتي سوى النار، ولا شيء غيرها. قفزت من مكاني. لا بد أن السجين السابق في الزنزانة كان في نفس وضعي، ولا بد أنه وجد وسيلة، أعواد ثقاب، ربما كانت مخبأة هنا في مكان ما.

بدأت في البحث في زنزانتي على نحو منهجي. ثمة معجزات تحدث إذا تمناها المرء وآمن بها. على غطاء المصباح، في الأعلى تمامًا بالقرب من السقف، وجدت في النهاية ثلاثة أشياء لم أستطع الوصول إليها إلا بوضع كرسي فوق المائدة: مبرد من الصلب ثلاثي الأوجه؛ قطعة خشب طويلة بها تجويف على أحد وجوهها، وفي التجويف قطعة من حجر الصوان مربوطة بخيط؛ وأخيرًا علبة من الصفيح وعلى أحد جدرانها قطعة كتان محروقة.

حديد صلب وحجر ومادة قابلة للاشتعال، ها هي ولاعة «روبنسون»، لقد نجوت. وضعت سيجارة في فمي، ووضعت العلبة بمادة الاشتعال على المائدة، وبدأت في إشعال النار. نجم عن ذلك لون وردي فاتح، ولكن لم تتولد أي شرارة. من دون هوادة ظللت

أحاول، سال العرق من جبيني، انطلقت شرارتان أو ثلاث شرارات، لكنها أطفئت قبل أن تنتقل إلى المادة القابلة للاشتعال.

أظلمت الدنيا، وظللت أحاول، ثم أقبل الليل وأنا ما زلت أحاول. لم تشتعل نيران. كدت ألوك السيجارة في فمي، وهكذا اكتشفت في ذلك المساء ـ لا، ليس توليد النيران، كان عليَّ أن أتمرن على ذلك في أمسيات أخرى ـ اكتشفت مضغ التبغ.

في السجن فهمت مغزى بعض الحِكَم التي نستخدمها، لكنها فقدت معناها في حياتنا منذ زمن بعيد. كانت هناك عادة في أحد السجون، وهي منح السجناء مرة واحدة، كل ٢٤ ساعة، جرة بها ماء نظيف. ولكنني كنت معتادًا على توزيع الماء مرتين في اليوم، وهكذا ألقيت بالماء المتسخ، غير أني لم أحصل على ماء نظيف. عندما أردت أن أغسل يدي تذكرت الحكمة التي تقول: على المرء ألا يلقي بالماء المتسخ قبل أن يحصل على ماء نظيف.

كنا نحصل على خبز في الصباح والمساء، في كل مرة نِصف رطل من الخبز الذي يبدو كقالب مستطيل ذي حافة مستديرة. في الصباح كنا نقطع الخبز إلى شرائح، ولكن في المساء لم نكن نستطيع ذلك، فهناك لوائح سخيفة تفرض

على المساجين أن يضعوا في كل مساء السكين والشوكة في كيس أمام الباب. وهكذا كنا نجلس أمام قطعة كبيرة من الخبز، ولا حتى أكبر الأفواه يستطيع أن يقضم منها قضمة، وهكذا بدأنا نفعل ما ورد في الإنجيل: «نكسر» الخبز.

لكن كل هذه الأفعال البسيطة والسهلة التي يتعلمها المرء لم تكن سوى مجرد مظاهر خارجية لعالم مختلف تمامًا. لقد أصبحنا نعيش حياة لا ننتظر فيها أي شيء من الآخرين، بل كان علينا أن نفعل كل شيء بأنفسنا. وكلما انغلق المرء على ذاته، زاد شعوره بالأمان والهدوء، وكلما انتظر المرء شيئًا من الآخرين، من الحراس والموظفين ورجال القانون، زادت الصعوبات والعوائق التي تسد طريقه.

٨

الإهانات الصغيرة

رغبة وحيدة تتملك عادة الوافد الجديد إلى السجن: أن يُترك وشأنه. إذا لم يكن غبيًّا، فسيلاحظ سريعًا أن كل الموظفين، كبارهم وصغارهم، يعتبرون أي رغبة يعبر عنها ـ حتى وإن كانت من أكثر الرغبات توافقًا مع الطبيعة ـ إزعاجًا ومضايقة لهم. وهكذا يتواضع، ولا يلجأ إلا في أصعب الظروف إلى صاحب الجلالة والفخامة، السيد الحارس، أو المشرف عليه، أو رئيس الحرس الذي يعمل تحت إمرته جيش من حاملي النجوم على أكتافهم، أو السادة مديري السجن، ورؤساء الورش والمشرفين على الماكينات وموظفي السكرتارية والمفتشين ورؤساء المفتشين ومديري المفتشين.

مع ذلك تأتي لحظات يجد نفسه مرغمًا على إبداء رغبة.

لقد أُلقي القبض عليه فجأة، ولهذا يريد أن يكتب رسالة إلى عائلته، أو أن يرسل توكيلًا قانونيًّا، أو أن ترسَل إليه أشياء. حسنٌ. إنه يعبر عن رغبته. في البداية يعلمونه أن إبداء هذه الرغبة لا يجوز له إلا في وقت معين: صباحًا عند فتح باب الزنزانة.

يروِّض قلقه، ويعبر في الصباح التالي عن طلبه: إرسال رسالة. تسجَّل رغبته، وفي أحسن الأحوال يحصل بعد الظهر على ورقة يزدحم أعلاها باللوائح والتنبيهات، إلى جانب بياناته الشخصية ورقم زنزانته، وتأشيرة تقول إنه «محبوس على ذمة التحقيق». أما إذا أراد الحصول على ورق يخلو من كل تلك التأشيرات التي لا فائدة منها ولا تعني المُرسَل إليه مطلقًا، بل هي تلطخ سمعة كاتب الرسالة قبل إصدار الحكم عليه، فلا بد أن يتقدم أولًا بطلب من أجل ذلك. فإذا تمت الموافقة، يجب عليه ـ إذا كان معه نقود ـ أن يكلف أحدًا بشراء ورق له، أما إذا لم يكن معه، فعليه أن يكتب على الورقة المرفوضة لصديق من أصدقائه، طالبًا منه أن يرسل له ورقًا بريئًا. إذا سار كل شيء على ما يرام، يُسمح له بكتابة رسالته المستعجلة في غضون أسبوع أو أسبوعين.

من التعليمات المكتوبة أعلى الورقة يعرف أن من

المسموح له الكتابة فقط على السطور، وليس في الهامش أو بين السطور، وأن عليه الاكتفاء بأربع صفحات من القَطْع الصغير، وأنهم لن يوافقوا على إعطائه ورقًا من قَطْع أكبر، وأن عليه الاختصار قدر استطاعته، إلى جانب لوائح أخرى كثيرة سخيفة.

ربما تكون نقوده صودرت لدى وصوله إلى السجن، عندئذ سيكون الأمل ضعيفًا في أن يرسل بالبريد رسالته المكتوبة. تتحمل الدولة ثمن طابع بريد الرسالة الأولى من السجن، ولكن كم من مرة «يُنسى» ذلك، أو تصادَر الرسالة. عندئذ يصله إشعار بالأمر، بعد مرور أربعة أسابيع ـ في حين كان هو ينتظر الرد على أحر من الجمر ـ أو ربما لا يحصل على أي إشعار بما أن القضاء ما زال ينظر في قضيته. كلا الأمرين محتمل الحدوث، وهو لا يعرف أبدًا ما سيحدث.

لكن التعليمات التي تزين أعلى الرسالة كان ينقصها أهم شيء، وهو أن على المحبوس احتياطيًّا ألا يكتب شيئًا عن «موضوعه». لكن هذه القاعدة الغائبة مطبقة على أرض الواقع، وتمنع الوافد حديثًا من أن يتحدث مع أقربائه عن سبب حبسه أو أن يعبر عن تبريره لذلك.

مثال آخر: يحصل السجين على بعض التبغ من أحد

الزوار الذي أحضر له سجائر. لكن الزائر لم يفكر في أن المُهدَى إليه يقبع في السجن، لم يفكر في «النار». إذا كان مع السجين نقود عندما دخل السجن، فهو في وضع جيد نسبيًّا، ما عليه سوى انتظار ذلك اليوم من أيام الأسبوع الذي يُسمح له فيه بإبداء رغباته. عندئذ يشترون له أعواد ثقاب من نقوده. وهكذا تلبَّى رغبته فقط بعد أن يصرح بها بنحو ثلاثة إلى تسعة أيام.

أما إذا لم تكن بحوزته نقود، فليس أمامه سوى طريق التحايل بمساعدة أحد السجناء الذين ينظفون الممر ويوزعون الطعام. عليه عندئذ أن يدفع «الفوائد» أيضًا. وأنا أخضر العود، كنت أحصل على ثلاثة أعواد ثقاب مقابل سيجار.

وبطبيعة الحال فإنه يخاطر بمصادرة التبغ الذي لديه إذا انكشفت عملية المقايضة، عندئذ يُسحب منه بشكل دائم التصريح بالتدخين لأنه لم يكن جديرًا به، ولأنه انتهك لوائح السجن المقدسة السامية.

إحدى تلك اللوائح عميقة المغزى لائحة تفرض على السجين ألا يرقد على سريره أثناء النهار، ما دام أنه ليس مريضًا. عليه أثناء النهار أن يطوي سريره ويرفعه إلى مكانه على الجدار. والإنسان لا يكون مريضًا، إلا إذا أكد طبيبٌ

ذلك. فإذا كان مريضًا ولم يُعرض بعد على طبيب ـ في عديد من السجون لا يأتي الطبيب سوى مرة أو مرتين في الأسبوع ـ فإياه أن يرقد، وإلا تعرض للعقوبة والتوبيخ.

بالطبع لا تواجه كل هذه المصاعب ـ وعددها هائل ـ إلا الوافد الجديد. أما السجين المحنك، الذي كثيرًا ما يجد نفسه مجبرًا على تحمل الحبس الاحتياطي، فهو يعرف كيف يسيِّر أموره. ولهذا لا يحتاج مطلقًا إلى تقديم شكوى. إن الطريقة التي يحافظ فيها على النظام في زنزانته، وكيفية استلامه للطعام وحديثه مع السجين الذي يوزعه، والنحو الذي يجيب به عن أسئلة الحارس، كل ذلك يشي على الفور بأنه سجين محنك، ولذلك فإن أي حارس يتجنب مضايقته، لأن ذلك سيتسبب في متاعب لا حصر لها.

أما الوافد الجديد فعليه أن يشعر بكل أثقال الحبس. ليس هذا فحسب، في كثير من الأحيان يقع السجين ضحية مزاج الحراس: هؤلاء الأشخاص الذين يتقاضون رواتب هزيلة، والذين هم دائمًا في عجلة من أمرهم، يرغبون في تفريغ غضبهم، مرةً، في ضحية لا تستطيع الدفاع عن نفسها. ما زالت ذاكرتي تحتفظ بحالة كهذه تدعو إلى الخجل الشديد.

التغيير الوحيد الذي يعايشه السجين الاحتياطي في يومه الذي لا ينتهي هو «الساعة الحرة»، وفيها يُسمح للمساجين بالخروج إلى الهواء الطلق لنصف ساعة، حيث يسيرون خلف بعضهم البعض في الممشى الشهير بـ«ممشى المشنقة»، وكل سجين يبعد عن الآخر ثلاث خطوات. الكلام ممنوع بالطبع خلال ذلك. مَن يُضبط متلبسًا، يوبَّخ توبيخًا شديدًا، أما إذا ضُبط ثانيةً فإنهم يُخرجونه من الصف ليمشي منفردًا بجوار حائط ما. هذه على الأقل هي القاعدة، لكنني عايشت في أيامي الأولى في السجن استثناء.

كان يسير أمامي يهودي ـ عرفت ذلك فيما بعد ـ قصير ونحيف، طبيب أسنان لم يدفع ما عليه من ضرائب، فحُكم عليه بالسجن. وعندما دفع ما عليه، كانوا قد قبضوا عليه قبل أن يصل التحويل إلى مصلحة الضرائب. في الحبس حاول من دون جدوى إبلاغ زوجته أن عليها أن تذهب إلى مكتب الضرائب المختص ومعها إيصال الدفع. لقد سُجن بسبب دَيْنٍ قد سدده، حتى وإنْ متأخرًا. وفي كل يوم كان يرى عيادته الصغيرة تضيع أمام عينيه، وتَحتم عليه، عاجزًا عن فعل شيء، أن يتحمل أن تبتلع مصلحة الضرائب مالَه وعقوبتَه.

بالطبع كان ينفعل ويسعد إلى أقصى حد عندما يجد شخصًا يستمع إليه، وهكذا كان ينطلق في الثرثرة. لم يكن يفعل ذلك على نحو فظ، بل كان يقطع كلامه قبل خمس أو ست خطوات من المرور أمام أي حارس، ثم يواصل ثرثرته بعد مسافة محترمة. مع ذلك أثار استياء حارس بدين ذي شارب، على الأرجح لأنه يهودي ـ فمعظم الحراس كانوا ضباط صف سابقين مُعادين للسامية ـ وهكذا زعق فيه الحارس.

صمت صاحبنا طيلة دورتين أو ثلاث دورات، ثم وجد نفسه مدفوعًا إلى النطق بعدة كلمات. لكنه كان مُراقَبًا. وهكذا توجب عليه أن يخرج من الصف، ثم انهمر سيل من الشتائم فوق رأسه، وبعد ذلك اقْتِيد إلى زنزانته، وحُرِمَ من الساعة الحرة.

في الصباح التالي كان صاحبنا يسير أمامي، منكس الرأس، عازمًا عزمًا واضحًا على ألا ينطق بكلمة. لكن ذلك لم يفده في شيء. الطرف الآخر عازم أيضًا على التحرش به:

ـ أنت تحدثت مع السائر خلفك. لقد أنذرتك بالأمس. إلخ. إلخ.

يحتج طبيب الأسنان، لكنهم كانوا قد اقتادوه إلى زنزانته. وفي الصباح التالي نشهد المسرحية نفسها.

ـ المرة القادمة سأضعك في الحبس الانفرادي!

يقولون في السجن عن مثل هذه الحالة: «لقد وضعه الحارس في رأسه». عقب ذلك رأيناه يختفي، شاحبًا، يرتعش غضبًا بعد أن شبع صراخًا وتنكيلًا.

لم أره بعد ذلك. آمل أن يكون قد تحمل الأيام العشرة أو الاثني عشر من الحبس. لكنه كان أحد المرشحين للانتحار الذين لا يمكن أن يعجبهم السجن، على الرغم من الظروف «الإنسانية» فيه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

٩

التبغ

عندما أحضرني أحد رجال الشرطة الجنائية معتقَلًا إلى زنزانتي في تلك الليلة من سبتمبر، اجتاحني عطش مهلك إلى الخمر. لم أكن شربت شيئًا منذ خمس أو ست ساعات، وكنت أعتقد أنني سأموت لو لم أحصل على جرعة خمر. وانتظرت الصبح على أحر من الجمر حتى أذهب إلى الطبيب. وعندما جاء الصباح حاملًا معه ماء القهوة البني والخبز الجاف، لم أطلب زيارة الطبيب. لسبب لا أعلمه أيقظَت الأجواء الجديدة مقاومتي. لم أعد أريد خمرًا، أصبحت أريد حبسًا طويلًا حتى أتحرر من سطوة الكحول إلى الأبد.

وهذا ما نجحت فيه. خلال فترة حبسي الطويلة لم يتسبب إدماني للكحول في صعوبات تذكر، وهكذا شفيت شفاء

تامًّا، لدرجة أنني اليوم قد أشرب ـ إذا حتمت الضرورة عليَّ ذلك ـ مع الأصدقاء كأسًا من البيرة أو من النبيذ، لكن الكحول فقدَ جاذبيته بالنسبة إليَّ، وأشعر براحة أكبر بدونه.

لكن إدمانًا آخر عذبني من أول يوم: الجوع إلى التبغ. الأمر في الحقيقة غير مفهوم تمامًا، لقد تغلبت على إدمان خطير من دون شكوى تُذكر، في حين أنني لم أستطع السيطرة أبدًا على إدمان أهون بكثير. ربما يعود ذلك إلى أنني ادخرت كل إرادتي للصراع مع الخمر، وربما يعود أيضًا إلى أنني رأيت كافة الرفاق في السجن يعانون من ذلك الحرمان. إن الصرخة المطالبة بالتبغ هي صرخة كل المساجين في جميع السجون والمعتقلات، وشهوة التدخين هي المحرك الحقيقي لكل عمليات التهريب السرية التي تحتال، مرة بعد أخرى، على نظام الرقابة الدقيق في السجون. إن تهريب الرسائل، والتجارة بالنقود والملابس والمواد الغذائية والصابون، كل هذا ليس إلا ظاهرة مصاحبة لذلك الاحتياج الأساسي إلى تدخين التبغ.

عندما أحضروني إلى زنزانتي، لم تكن معي سيجارة واحدة. جاء الصباح، وجاء معه الجوع إلى النيكوتين،

وأول شيء قلته لسجين معي ممن يرتدون الزي الأزرق ويساعدون في السجن، هو:

ـ يا زميل، هل ممكن تعطيني نفَسًا من سيجارة؟

ظللت منتبهًا للحظة كان فيها الحارس يفتح زنزانة بجانبي، لكني لم أحصل من لابس الأزرق إلا على حركة متذمرة، ولم يعطني شيئًا. تكرر تسولي لنفَس من سيجارة مع كل مرة يُفتح فيها الباب، والإيماءة المتذمرة التي صدرت من السجين العامل في السجن تطورت سريعًا إلى سخرية، واستهزاء صريح. وَشَوْا بي، وقالوا للحارس إنني الشخص الذي يريد بأي ثمن أن يدخن نفَسًا من سيجارة. أدركت أنني لن أحصل منهم على شيء، لأنه ليس معهم شيء، أو لأنهم لن يعطوني شيئًا بدون مقابل. آنذاك لم أكن أعرف ما هو المقابل الذي يمكنني أن أعطيه لهم.

في أيامي الأولى في قسم شرطة ميدان «ألكس» حبسوني بالفعل وحدي في الزنزانة، لم تكن هناك ساعة حرة، وهكذا كان يمكن أن أنهار تمامًا بسبب نهمي إلى النيكوتين، لو لم أعثر خلال تفتيشي لجيوبي مرة ثانية على مَبسِمَي سيجارة. انتزعت من مكنسة يدوية شعرة طويلة ورشقتها في تجويف المَبسِم. عندما انتزعتها ثانية كانت قد تشبعت براسب التبغ البني السميك. كان مرًّا كالعلقم، ولكن تأثيره

كان مريحًا، مريحًا إلى درجة أن جسدي كله استمتع بهذا العصير اللزج ذي المفعول المهدئ.

على كلٍّ، كنت حذرًا جدًّا، لدرجة أنني قلت لنفسي: حتى العصير في المباسم قد ينضب. ولأنني لم أكن أعرف متى سأحصل على تبغ، فلم أسمح لنفسي بمثل هذه الشعرة المشبعة بالنيكوتين إلا كل ثلاث أو أربع ساعات.

بعد ذلك حلَّ موعد التحقيق عند الشرطة الجنائية، وكان من فوائده أنه جعلني أمتلك خمسين سيجارة تقريبًا. عندما كان عليَّ أن أستبدل ملابسي، تناولت من حقيبتي علبتَيْ سجائر وعلبة كبريت ودسستها في سروالي الداخلي. عندما عدت إلى الزنزانة، وعندما امتلأت رئتاي عن آخرهما بذلك الشذا الطيب الذي كان كالبلسم على روحي، لم أعد أكترث بالماضي أو بالمستقبل أمام سعادة تلك اللحظة، وأمسى السجن غير سيئ إلى هذا الحد، لأنه يجلب مثل هذه النعم.

ولكن ماذا تفعل خمسون سيجارة لمُدخن شره! لقد دخنتها كلها قبل أن أغادر قسم شرطة ميدان «ألكس»، بل وجمعت التبغ من الأعقاب ولففته في ورق جرائد ودخنته. وهكذا عدت مرة أخرى إلى المباسم وشعرة المكنسة.

ثم رُحِّلت إلى سجن «موآبيت»، وعلى الأقل خلال الترحيل كان لي أن أدخن كما شئت. كنا عشرين أو ثلاثين رجلًا في سيارة الترحيلات، والاضطراب يسيطر علينا جميعًا. رُحِّل معظمنا ومعه أشياؤه، وأيضًا سجائره. في «موآبيت» كان علينا أن نسلم كل شيء، وهكذا راح الرجال يدخنون في راحة سماوية سيجارة بعد الأخرى، بل كانوا يهدون بعضهم البعض السجائر في حماسة مرحة.

دسست ما حصلت عليه ـ ولم يكن قليلًا ـ في ساق السروال الداخلي وفي الجوارب، ونجحت فعلًا، على الرغم من كل تحذيرات الآخرين المتشائمة، في تهريب الشحنة إلى «موآبيت». وهكذا انتهكت باجتهاد لوائح إدارة السجن، غير أن تلك اللوائح موضوعة للأسف الشديد بحيث يتحتم على كل سجين أن ينتهكها. يصبح المرء رفيقًا للمساجين الذين يعانون معه، وبسرعة يتوحد معهم في مقاومة نظام يهتم بالتفاهات، نظام مهين، وبارد.

تحسنت حالتي في «موآبيت»، كنا نحصل هنا على ساعة حرة، كما اختلطتُ بآخرين، وكل يوم تقريبًا كان هناك على الأقل عدة أعقاب ألفُّ منها سيجارة بعد انتهاء اليوم. أما إذا سارت كل الأمور على نحو سيئ، فكنت أنكب على

جمع الأعقاب، وهي رياضة خطيرة ومثيرة كنت أمارسها في كل ساعة حرة.

كان ذلك يحدث على النحو التالي: كان السادة الكبار، عُتاة المجرمين، يستخدمون قبلنا الحوش الذي نمشي فيه خلال ساعتنا الحرة. لم يكن هؤلاء يتسكعون مثلنا، نحن الحملان الصغيرة ـ وراء بعضهم البعض في صورة قطيع من ثلاثين أو أربعين رجلًا تحت إشراف ثلاثة أو أربعة حراس ـ بل كانوا يتمشون فرادى، أو كل ثلاثة أو أربعة رجال معًا على أقصى تقدير، تحت أشد أنواع الرقابة صرامة، مع الالتزام فعلًا (تقريبًا) بالصمت.

كان مسموحًا لهؤلاء السادة الكبار بأن يُدخنوا بالطبع ـ وهو ما لم يُسمح لنا به إلا في الزنزانة ـ وكان لديهم ما يدخنونه. كانوا يلقون الأعقاب في الحوش لأنهم لم يكونوا بحاجة إلى جمعها. هذه الأعقاب كنا نجمعها نحن، ونلتقطها على نحو عَرَضي لا يلفت الانتباه، وكأننا نعدل شيئًا في الحذاء أو في الجوارب. بسرعة كانت الأعقاب تُجمع من الممشى الرئيسي، ولكن الأعقاب القريبة من الحراس خارج الدائرة، كانت تنتظر مَن يجمعها.

جمع تلك الأعقاب كان يتوقف على ميل الفرد إلى الإقدام والجسارة. كنا نترك الأعقاب الصعبة للغاية حتى

النهاية. عند انتهاء الساعة كان التدافع هو سيد الموقف في الغالب، وهكذا كان بإمكان المرء أن يتنحى خطوتين أو ثلاث خطوات جانبًا، ويغتنم تلك السنتيمترات الثمينة من التبغ. يا لسعادة المرء عندما يفوز بخمسة أعقاب أو ستة! كان ذلك يعني سيجارة كاملة، وعندما يكون لدى المرء سيجارة، فإن يومه يكون جيدًا، أما إذا لم يكن لديه أي شيء، فيومه سيئ.

ولكن بعض الحراس كانوا يُظهرون طِباعهم الخنزيرية خلال ذلك أيضًا. كانوا يضعون أعينهم على جامعي الأعقاب، ثم ينتظرون بكل هدوء حتى نهاية الساعة الحرة، ويطلبون من الشخص أن يخرج من الصف، وأن يقلب جيوبه، وأن يرمي ما جمعه على الأرض. لا يكتفي الحراس بذلك، بل كان على السجين أن يدهس الأعقاب بعناية حتى لا يستطيع آخَرُ أن يأخذها. بعد عملية كهذه كان الغضب يعصف بالشخص الذي يطلق عِنان خياله للأفكار الثأرية، مستهزئًا بتلك الحِكم الفارغة الواردة في اللائحة الداخلية للسجن والتي تَعد بالإصلاح والتهذيب. ما أجمل الإصلاح الذي يسمح بمثل هذه الإهانات!

كانت هناك وسيلة للانتصار حتى على أولئك الحراس، وهي أن يضع المرء ببساطة الأعقاب في فمه، وهناك تكون

في مأمن، ويمكن استخدامها لفترة طويلة كـ«تمباك». وهكذا تعلمت أخيرًا، على الرغم من اشمئزازي في البداية، مَضْغ التبغ.

١٠

الحكم

يوم المحاكمة هو اليوم العظيم في حياة السجين، إذ تُتاح له فرصة ثانية لكي يكون ذاته قبل أن يغوص لفترة ـ قصيرة كانت أو طويلة ـ في العالم الكبير الذي لا يعرف فيه أحد أحدًا، عالم المرتدين أزياء زرقاء أو بنية. القاضي ووكيل النيابة، والقضاة المساعدون، والمحامون، وأشخاص يجلسون في قاعة الجمهور، ثم دخول الشهود: كل هؤلاء يُذكرونه بعالمه كمواطن قبل الحبس. يستطيع أن يتحدث عن نفسه، أخيرًا يصبح مرة أخرى إنسانًا له شخصية، كلهم يتحدثون عنه، كلهم يفكرون فيه. ثم الاحتمال الذي يدفع عديدين إلى خوض صراع، لأنهم يعتقدون بإمكانية الحصول على حكم بالبراءة.

في ذلك اليوم من شهر مارس كنا ثلاثة رجال ننتظر صدور

الحكم. تعرفنا إلى بعضنا البعض عند مدير السجن، أعطونا ملابسنا المدنية مرة ثانية، فارتديناها. بماذا يشعر المرء عندما يرتدي بدلة ضيقة بدلًا من ملابس السجن الواسعة جدًّا؟

منذ أن عرفت بموعد محاكمتي استولت عليَّ هموم عظيمة طيلة الأسابيع الأخيرة: لقد توسخت ياقة قميصي الأبيض واسودت خلال الفترة التي قضيتها بملابسي المدنية في سجنَي ميدان «ألكس» و«موآبيت». قدمت طلبًا بغسل القميص على حسابي، لكنه رُفض:

ـ يمكنك أن تحصل منا على منديل تلفه حول رقبتك.

لا أستطيع الادعاء بأن رغبتي كانت أن أظهر أمام شهود الزمن الماضي بمنديل السجن ذي المكعبات الزرقاء. لكنني لم أكن حديث العهد بالسجن تمامًا. اتصلت بالسجين الذي يعمل في السجن، وأبديت له رغبتي فيما يتعلق بمقاس وشكل الياقة، ومن مكان ما في السجن، من رجل لم أره أبدًا، حصلت عبر سلسلة من الوسطاء على الياقة التي كنت أريدها بالضبط: ناصعة البياض، كأنها جديدة. لم تكن ياقة رخيصة، لقد كلفتني علبتين من التبغ، ولفتين من التمباك. لكنني حصلت عليها، مثلما يحصل المرء على كل شيء في السجن، ما دام يمكنه دفع الثمن.

في سيارة الترحيلات تعرفت إلى زميليَّ في الحبس، شاب في العشرين من عمره، وكهل أشيب ممتلئ البدن في الخمسين. كلاهما كانا شبه مقتنعَين بأنهما سينالان البراءة، فهما لم يُذنبا في أي شيء مطلقًا. كان الشاب يتعلم مهنته عند إسكافي، وهو متهم بالسطو على محل لبيع المياه الغازية وعلى كشك لبيع التبغ، أما الكهل فكان جزارًا، وكانت تهمته أنه احتال على عدد من الأشخاص وباع لهم عقارات لا قيمة لها. كنت على ما يبدو الوحيد الذي كان يتوقع حكمًا بالإدانة، وكانا يسخران مني لأنني لم أنكر التهم الموجهة إليَّ.

ـ عليك أن تنكر، أن تقول في وجه كل شاهد إنه يكذب، إنك لم تره أبدًا من قبل. عندئذ ستنخفض عقوبتك على أي حال.

ـ لو عرفنا فقط كيف كان إفطار القاضي!

ـ هذا أمر يتوقف عليه كل شيء. وهل كانت زوجته لطيفة معه قليلًا.

قال الجزار:

ـ أنا أول مَن سيأتي عليه الدور. أتمنى ألا يكون القاضي «يورس» من نصيبي. «يورس» يحكم دائمًا بالسجن.

ـ «يورس» هذا لا شيء. في «رايشنباخ» كان لدينا قاضٍ

مخمور على الدوام. مرة أخطأ وحكم بالسجن على أحد الشهود بدلًا من أن يحكم على المتهم. لم يكن بالإمكان فعل شيء. الحكم حكم.

ـ لا، اسمح لي...

نشب نقاش حامٍ حول ما إذا كانت هذه الحالة ممكنة الحدوث.

ندخل إلى زنزانة الانتظار في المحكمة الابتدائية. غرفة عارية، ليس بها سوى دكة أمام الجدار. شخبطات على الجدار. الجزار يقطع الغرفة بسرعة ذهابًا وجيئة.

ـ لو أعرف فقط متى سأدخل. يجب أن أذهب إلى الحمَّا...

قلت له:

ـ انتظر لحظة. عندما يجيء الحارس لاصطحابك، قل له.

ـ لا أستطيع الانتظار. لا أستطيع. يجب أن أذهب إلى الحمَّا...

رحنا نخبط على الباب الحديدي. يتردد صدى الصوت والدوي في الممر الطويل بالخارج. لا أحد يأتي. عندما نلتفت، نرى الجزار قد فك أزرار سرواله، ويريد أن يفعلها في الزاوية.

صرخت فيه:

ـ توقف! أتريد أن تفعلها على الأرضية؟ خذ هذه الصحيفة.

بالكاد أنجح في وضعها تحته. عندئذ تنساب أشياء متماسكة وأخرى سائلة. وجه الجزار شاحب كالثلج. ولكنه على كل حال راح يهمس قائلًا:

ـ لو كان تناولَ فطورًا جيدًا، لو كان تناول فطورًا جيدًا!

يتبادل الإسكافي النظرات معي. أخيرًا يجف النهر. يُطبق الورق، ثم نلقي به، قدر الإمكان، من فتحة التهوية. لا ننجح في ذلك تمامًا، وتفوح رائحة فظيعة في الزنزانة.

يقول الإسكافي متحديًا:

ـ كان خوفك كبيرًا، والآن علينا أن نشم رائحتك العفنة!

لا ينطق الجزار بكلمة، بل يسدد لنا نظرات شريرة، ثم يعدو شاحبًا في الغرفة، رائحًا راجعًا، وهو يتمتم بشيء.

أقول له:

ـ ولكنك بريء! ستنال حكمًا بالبراءة.

يهمس قائلًا:

ـ وماذا لو لم يفطر جيدًا؟ يا إلهي، ماذا أفعل عندئذٍ؟ ماذا أفعل؟

وأخيرًا يجيء الحارس:

ـ «رودتسكي»، عليك الدور. يا إلهي، ما هذه الرائحة العفنة؟

ـ هل من الممكن أن تفتح لنا الشباك؟

ـ ممنوع فتح الشباك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الكاتب

«هانس فالادا» (١٨٩٣-١٩٤٧)، واسمه الحقيقي «رودولف ديتسن»، من أشهر الكُتاب الألمان في القرن العشرين. بأسلوبه الموضوعي الجاف الذي يندرج في تيار «الموضوعية الجديدة» كتبَ عددًا من الروايات الاجتماعية الكبيرة التي حققت نجاحًا باهرًا، مثل رواية «ماذا بعد، أيها الرجل الصغير؟» (١٩٣٢)، التي عالج فيها الانحدار الاجتماعي الذي شهده موظف بسيط خلال الأزمة الاقتصادية التي اجتاحت العالم في عشرينيات القرن الماضي. حققت هذه الرواية نجاحًا عالميًّا، تكرر في أعماله اللاحقة مثل «ذئب بين ذئاب» (١٩٣٧) و«كلٌّ يموت من أجل نفسه فحسب» (١٩٤٧).

لم تفقد أعمال «فالادا» راهنيتها وأهميتها حتى اليوم، فما زالت تصدر في طبعات جديدة، وما زالت تُترجم

وتُعاد ترجمتها إلى عديد من لغات العالم، كما تحول عدد كبير من أعماله إلى أفلام سينمائية وأعمال مسرحية.

قضى «فالادا» فترات من حياته في مصحات العلاج من إدمان المورفين، كما وقع فريسة إدمان الخمر، ولذلك كان الإدمان موضوعًا مسيطِرًا على بعض أعماله التي صدرت بعد وفاته، مثل رواية «السكير» (كتبها عام ١٩٤٤ وصدرت للمرة الأولى عام ١٩٥٠) ومجموعة «تقرير موضوعي عن سعادة مدمن المورفين» التي صدرت لأول مرة عام ١٩٩٧، ومنها اخترنا قصتَي هذا الكتاب، اللتين تترجمان إلى العربية للمرة الأولى.

المترجم

درس سمير جريس الألمانية وآدابها في القاهرة و«ماينتس» بألمانيا، وترجم من الألمانية نحو عشرين عملًا من الأعمال الأدبية المعاصرة، منها: «عازفة البيانو» لـ«إلفريده يلينك» (نوبل ٢٠٠٤)، و«الكونترا باص» لـ«باتريك زوسكيند»، و«رجل عاشق» لـ«مارتين فالزر». وألَّف كتابًا عن الكاتب الألماني «جونتر جراس» بعنوان «جونتر جراس ومواجهة ماضٍ لا يمضي» (٢٠١٦).

صدرت له عن «الكرمة للنشر» رواية «الوعد» للكاتب السويسري «فريدريش دورِنمات».

حصل جريس على «جائزة معهد جوته للترجمة الأدبية» في فئة المترجمين المتمرسين عام ٢٠١٤، وعلى الجائزة الأولى في ترجمة القصة من المجلس الأعلى للثقافة في مصر عام ١٩٩٦.

«يمكن اعتبار «فالادا» بطلًا، كاتبًا بطلًا بقي على قيد الحياة الوقت الكافي فقط لرد الضربة إلى ظالميه»

«ألان فورست»

«كل شيء في حياتي ينتهي في كتاب»

«هانس فالادا»

بصراحة مُؤثِّرة ومُبهرة قلَّ نظيرها في الأدب العالمي، يخبرنا «هانس فالادا» عن السلوك القهري لمدمن المورفين، إذ عرف من خبرته الخاصة نشوة لحظة التعاطي والكارثة التي تليها.

تعود كتابة «تقرير موضوعي عن سعادة مدمن المورفين» إلى ثلاثينيات القرن العشرين، إلا إن النَّص لم يُنشر قبل نهاية التسعينيات.

أما النَّص الثاني في هذا الكتاب، والذي كُتب في الفترة نفسها، «ثلاث سنوات لم أكن إنسانًا»، فيتناول تجربة السجن، وهو أيضًا مُستوحى من حياة المؤلف.

ينجح «فالادا»، على الرغم من أسلوبه الموضوعي الجاف الذي يندرج في تيار «الموضوعية الجديدة»، أو ربما بفضل هذا الأسلوب، في صياغة نصَّين آسرين، شيِّقين، وقويَّين في صدقهما، وسُخريتهما، وتميزهما في تاريخ الأدب الحديث.

نُقدِّم القصتين هنا كأول أعمال «فالادا» بالعربية، وقد ترجمهما عن الألمانية سمير جريس ببراعة غنية عن التوصيف.

telegram @soramnqraa